كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالمنصورة

حولية

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالمنصورة

مجلة علمية محكمة

العدد السادس والعشرون

يشرف على تحريرها

أ.د/ محاسن فكري عبد الخالق
عميد الكلية

أ.د/ علي عبده محمد علي
وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

لعام
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

للتواصل مع المجلة والاستفسارات

توجه جميع المراسلات باسم الأستاذ الدكتور: رئيس تحرير المجلة

على صفحة تواصل المجلة على موقع بنك المعرفة المصري على الرابط التالي:

https://bfsgm.journals.ekb.eg/journal/contact.us

أو البريد الإلكتروني للمجلة:

mgirlsmansoura@azhar.edu.eg

أو العنوان التالي:

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة - شارع الشيخ محمد متولي الشعراوي - عزبة الشال - المنصورة - محافظة الدقهلية - مصر

البحوث المنشورة تعبر عن آراء الباحثين ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو القائمين عليها

الترقيم الدولي الموحد للطباعة

2735-5241

الترقيم الدولي الموحد الإلكتروني

ISSN: 2735-525X

النزعة الإنسانية في شعر صالح الشرنوبي

إعداد

د. سارة محمد محمد الأخرس

مدرس بقسم الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

النزعة الإنسانية في شعر صالح الشرنوبي.

سارة محمد محمد الأخرش.
قسم الأدب والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الالكترونى: sarahar@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

النزعة الإنسانية لا يخلقها في الإنسان إلا شعور بالمسئولية تجاه من حوله؛ لأن معرفة الإنسان لذاته، أو للآخرين سؤال قديم، حديث كان هاجس الناس على مرِّ العصور؛ حيث إن أبرز ما يميز الإنسان فكره، وخلقه، وروحه، ومن ثم فإذا أردنا أن نعطي لهذا الوجود قيمته، فلا بدَّ، وأن نعطي لإنسانية الإنسان قيمتها، وقد حاولت هذه الدراسة تحليل مضامين هذه النزعة الإنسانية في شعر الشرنوبي حيث عمدت إلى رصد الجوانب الإنسانية في حياة الشرنوبي فيما يخص الذات الإنسانية، وصراعها مع الحياة، أو فيما يخص الآخر في كل ما يتعلق بقضاياه الاجتماعية، والوطنية، والقومية، وجاء البحث وفق خطة تكونت من فصلين تسبقهما مقدمة، وتمهيد، وتعقبهما خاتمة، وفهرست للمصادر والمراجع.، وجاءت على النحو التالي: المقدمة وشملت دوافع اختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، والخطة التي اقتضتها الدراسة، تلى ذلك التمهيد، وجاء بعنوان(النزعة الإنسانية، والشرنوبي) في محورين الأول: مفهوم النزعة الإنسانية. والثاني: لمحة تعريفية بالشرنوبي. أما الفصل الأول: فجاء بعنوان (إنسانية الذات، ومظاهرها في شعر الشرنوبي) وتضمنت عدة مباحث، الأول الصراع مع الذات ومظاهره، والثاني: الاغتراب مظاهره، وبواعثه، والمبحث الثالث: موقفه من المرأة سلبا، وإيجابا.وجاء المبحث الرابع بعنوان رؤيته للحياة، والموت بينما جاء الفصل الثاني بعنوان (الإنسان الآخر، ومظاهر التفاعل معه) وتضمن عدة مباحث الأول: مشاركة الآخر قضاياه الاجتماعية، والمبحث الثاني: مشاركة الأخر قضاياه الوطنية، والمبحث الثالث: مشاركة الآخر قضاياه القومية، أعقب ذلك خاتمة تضمنت نتائج البحث، تلاها فهرست المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: الإنسانية، الذات، الآخر، الصراع مع الحياة، المجتمع، الوطن، القومية.

Humanism in Saleh Al-Sharnoubi's poetry

Sarah Mohamed Mohamed Al-Akhrash.
Department of Literature and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Mansoura, Al-Azhar University, Egypt.
Email: sarahar@azhar.edu.eg

Abstract:

Humanism is created in man only by a sense of responsibility towards those around him; because man's knowledge of himself, or of others is an old and modern question. One that has been a concern of people throughout the ages; since the most prominent thing that distinguishes man is his thought, morals, and spirit. Therefore, if we want to give this existence its value, then we must give the humanity of man its value. This study has tried to analyze the contents of this humanism in Al-Sharnoubi's poetry, as it tried to monitor the human aspects in Al-Sharnoubi's life with regard to the human (self) and its struggle with life, or with regard to the (other) in everything related to his social and national issues. The research consists of two chapters preceded by an introduction and a preface, followed by a conclusion, and an index of sources and references. The introduction contains the reasons for choosing this topic ,the previous studies, the research methodology and the plan. Then, the preface entitled (Humanism and Al-Sharnoubi) in two axes: the first, the concept of humanism and the second is an introductory overview of Al-Sharnoubi. The first chapter: It was titled (The Humanity of the Self, and its forms in Al-Sharnoubi's Poetry) and included several topics: The conflict with the self and its forms, the second: Alienation, its forms, and its motives. The third topic: His attitude of woman, negatively and positively. The fourth topic was titled: His vision of life and death. While the second chapter was titled (The Other Man, and the interaction with Him).It included several topics, the first: Sharing the other's social issues. The second topic: Sharing the other's patriotic issues, and the third topic: Sharing the other's national issues, followed by a conclusion included the research results, and an index of sources and references.

Keywords: Humanity, Other self, Struggle With life, Society, Homeland, Nationalism.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله جليل النعم، باعث الهمم، ذي الجود والكرم، جعل لأهل العلم ميزة ومنزلة، ثم الصلاة والسلام التامان الأكرمان على محمد بن عبد الله خير البرية، ما أشرقت الشمس، وأضاء القمر.

وبعد:

فالنزعة الإنسانية تعني بيان مظاهر إنسانية الإنسان، والتعبير عن الذات وآلامها، وأفراحها، كما تعني مشاركة الآخر، والتعاطف معه دون النظر إلى لونه، أو جنسه، أو دينه، فالإنسانية إحساس بالمسئولية تجاه النفس والمجتمع؛ لأن أبرز ما يميز الإنسان هو فكره، وروحه، وكيفية تعامله مع الآخر؛ ولذا تعدُّ حياة الشاعر الإنسانية منبعا لكل أثر من آثاره الفنية، فحديثه عن النفس نابع من إحساسه، ومشاعره الذاتية، والجماعية، وحَسبُه أن يُتَرْجم رؤى الفكر، وإحساس القلب، فيسمو بذاته ومجتمعه، فالشاعر المبدع هو في حقيقته إنسان له مشاعره الخاصة، إلى جانب مشاعره العامة، فالشاعر في مناجاته لنفسه أو شكواه من الحياة لا ينفصل عن مجتمعه؛ لأن باعث شكواه ناتج عن عوامل نفسية، أو عاطفية، أو اجتماعية، وهي بلا شك نتاج انصهاره، وتعاملاته مع الآخرين." فالأدب يصور حياة النفوس، والقلوب، والأذواق على نحو لايستطيع التاريخ أن يصوره، ولا أن يسجله، ولا أن ينقله إلينا نقلا صحيحا دقيقا"[(١)]

ولعل من السمات التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات الناحية الفكرية، والخلقية، وقد تميزت النزعة الإنسانية في العصر الحديث بزيادة التمازج الحضاري؛ نتيجة لاتساع البعد الثقافي، والمعرفي لدى الأدباء والشعراء، وظهور تيارات متعددة ومتناقضة كانت ذات تأثير بالغ في ذات الشاعر، وفي علاقاته مع الآخرين سلبا وإيجابا.

(١) خصام ونقد، د/ طه حسين، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة التاسعة، عام ١٩٧٩م، ص٤٥.

الهدف من اختيار الموضوع:

تحاول هذه الدراسة تناول مظاهر النزعة الإنسانية في شعر الشرنوبي؛ لأن ما مرَّ به من تجارب إنسانية لا تعدو أن تكون أحد ثلاثة دوافع[١] الأول: أن تكون هذه النزعة موظفة في سبيل مثل أعلى ينشده الشاعر، ويؤمن بصلاحه لقومه.

الثاني: أن تكون شكواه ممثلة للشعور الإنساني بين جميع الأفراد.

الثالث: أن يشفع الشاعر شكواه بأسلوب يُظْهِرُ من خلاله إبداعه في الصياغة والتصوير؛ لأن استحسان الجمال في اللفظ، أو الصورة النفسية قسط مشاع بين جميع القراء ممن يتذوقون البلاغة والإبداع.

دوافع اختيار الموضوع:

وقد دفعني لاختيار صالح الشرنوبي؛ ليكون الشاعر الذي أتناول من خلاله مظاهر النزعة الإنسانية؛ ما تمتع به الشرنوبي من إنسانية مرهفة أصابته بكثير من المعاناة والآلام، حتى غدا شعره مثالا للمعاناة، ورغم معاناته الذاتية إلا أنه تفاعل مع جُلِّ قضايا مجتمعه الاجتماعية، والوطنية، والقومية، فجعل من شعره نموذجا إنسانيا بكل ما تتضمنه المعاني الإنسانية من آمال، وآلام.

الهدف من الدراسة

- الكشف عن المعاني والقيم الإنسانية التي تجلت في شعر الشرنوبي في شتى مجالات الحياة.
- بيان كثير من الجوانب الإنسانية التي لم يسلط عليها الضوء، حيث شُهِرَ الشرنوبي بأنه شاعر الشكوى، والمعاناة، وانشغل الدراسون بالجانب الذاتي، دون الجماعي.
- إثبات أن الشاعر الذات مُشَكِّلٌ من الشاعر الإنسان الذي يتفاعل مع الآخرين سلبا وإيجابا. وأن رومانسية الشاعر لا تعني انفصاله عن مجتمعه الإنساني.

(١) راجع معازف الشرنوبي الشاكية في شعره رؤية فنية، د/ فتحي أبو عيسى، مقال نشر في مجلة اللغة العربية بالمنوفية، العدد الأول، مطبعة الأمانة، ١٩٨٢م، ص ٦.

الدراسات السابقة

- معازف الشرنوبي الشاكية، رؤية فنية، دكتور / فتحي أبو عيسى، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الأول١٩٨٢م، مطبعة الأمانة.
- الإبداع الشعري عند صالح الشرنوبي بين تنوع التقليد، وعبقرية التجديد، دكتور/ شعبان زكي عبد الحفيظ، مجلة اللغة العربية بأسيوط العدد٣١، جزء ٣، سنة ٢٠١٢.
- المفارقة في شعر صالح الشرنوبي، دكتور / يوسف محمد عزاز، حولية كلية اللغة العربية بإتاي البارود، العدد٣٢، المجلد الخامس.

وبالنظر في هذه الدراسات تبين أن أستاذنا الدكتور فتحي كتب مقالا عن شكوى الشرنوبي من الحياة، وكيف أنتجت معاناته إبداعه الفني، من منطلق أن الفن يُوَلد من رحم المعاناة، أما الدراسة الثانية لأستاذنا الدكتور شعبان فقد انصب اهتمامه على قدرة الشرنوبي على توظيف التراث، واستلهام الشخصيات، والأحداث، واللغة، إلى جانب بيان قدرته على التجديد في الأوزان، وتعدد أشكال القصيدة. أما البحث الثالث (المفارقة) فقد خصه دكتور يوسف ببيان المفارقة اللفظية، والتصويرية، والموسيقية. وهذه الدراسات وغيرها من دراسات تناولت الشعراء الرومانسيين، أفدتُ منها - لاشك في ذلك، وجزى الله أصحابها عنَّا خير الجزاء - إلا أن هذه الدراسة ترتكز على منحى مختلف فهي تتناول النزعة الإنسانية في شعر الشاعر جامعة بين الذات، والآخر؛ حيث إن الذات الإنسانية لا تنفصل عن الآخر؛ لانها نتاج تأثر وتأثير، فلا بُدَّ أن يكون للمجتمع أثر في تشكيلها، كما أنها بالضرورة تؤثر في تشكيل المجتمع، فالشاعر عندما يبدع يكون إمَّا معبرا عن الذات، أو عن الآخر، أو ليُمْتِعَ، ويُظهر براعته، وفي كل الأطوار يكون معبرا عن الإنسان، وإنسانيته.

مادة البحث

يمثل ديوان صالح الشرنوبي الذي جمعه، وحققه الدكتور/عبد الحي دياب، وراجعه الدكتور/أحمد كمال زكي، والذي نشرته دار الكتاب العربي بالقاهرة، عام ١٩٦٦م، مادة البحث، ومرجعيته.

منهج البحث

اعتمد البحث المنهج (الوصفي التحليلي) حيث يقوم على استقراء الظاهرة، وتحليلها من الناحية الفنية، والنفسية؛ لتجلية جوانب تتعلق بالذات، وتأثرها بما يحيط بها من أحداث.وقد اقتضى هذا المفهوم للشعر أن يأتي وفق خطة جاءتْ على النحو التالي: -

هيكل البحث

تمثل هيكل البحث في فصلين تسبقهما مقدمة، وتمهيد، وتعقبهما خاتمة، وفهرست للمصادر والمراجع على هذه الصورة.

- المقدمة: وتتناول دوافع البحث، واختيار الموضوع، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، والخطة التي يسير عليها.
- التمهيد: النزعة الإنسانية، والشرنوبي. وجاء على محورين

الأول: مفهوم النزعة الإنسانية.

الثاني: لمحة تعريفية بالشرنوبي.

الفصل الأول: وجاء بعنوان إنسانية الذات، ومظاهرها في شعر الشرنوبي، ويتضمن عِدَّة مباحث: الأول: الصراع مع الذات ومظاهره.

الثاني: الاغتراب، مظاهره، وبواعثه.

الثالث: موقفه من المرأة سلبا وإيجابا.

الرابع: رؤيته للحياة، والموت.

الفصل الثاني: وجاء تحت عنوان (الإنسان الآخر، ومظاهر التفاعل معه)، وتتضمن عدة مباحث.

الأول: مشاركة الآخر قضاياه الاجتماعية، وتفاعله معها سلبا، وإيجابا.

الثاني: مشاركة الآخر قضاياه الوطنية.

الثالث: مشاركة الآخر قضاياه القومية.

- الخاتمة وتشمل نتائج البحث.
- فهرست المصادر والمراجع.

هذا والله ولي التوفيق، ومنه العون والسداد

الباحثة

التمهيد

النزعة الإنسانية والشرنوبي

(أولا: مفهوم النزعة الإنسانية)

الإنسانية مصدر صناعي مشتق من الفعل (أنس) وهي بهذه الصيغة تُعَدُّ من المصطلحات المستحدثة التي تعني الإنسان، وقضاياه، وحقوقه العادلة[(١)]. قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[(٢)]، ولما كان الأدب من أجلِّ الفنون الإنسانية التي لا تنفصل عن المجتمع، بل تتواكب مع الإنسان، وفطرته على مرّ العصور حتى عُدَّ الشاعر مرآة عصره، كما أن اتحاد التجربة الإنسانية يؤثر في الإنسان على مرِّ العصور، لذا نجد قارىء اليوم يتأثر بقصيدة شاعر جاهلي أو عباسي رغم فارق الزمن؛ لأن إنسانية الإنسان فطرة مشتركة، كما أن القيم الإنسانية واحدة، وإن سمت وسطعت في عصر، وضعفت وخبت في عصر آخر، ومع ذلك فالنزعة الإنسانية تظل تمثل الميل الطبيعي للشاعر بوصفه كائنا حيًا، كما تعكس القدرة الفطرية على التعاطف والتأثر بالآخرين.

وعلى ذلك فالنزعة الإنسانية تعني اهتمام الشاعر بالإنسان في شتى صوره خيره وشره، عدله وظلمه" فهي تهتم بإبراز الجانبين(المظلم، والمضيء) في حياة البشر، فليست الحياة جهمة كلها، وإنما تتضمن إلى جانب العتامة صورًا من الإشراق، ونفس الشاعر التي تتسع لاستيعاب كل أشكال الحياة ينبغي أن تهزّها الأشكال المشرقة، كما تستوقفها الصور الجهمة"[(٣)].

ويرى الدكتور(عبد الحي دياب) أن النزعة الإنسانية "تعني صدق التعبير عن الإنسان في مختلف حالاته من سرور وغضب، وهدوء وصخب، وصحة ومرض،

(١) لمزيد من التعريف بمصطلح الإنسانية ينظر الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، د/ محمد مفيد قميحه، منشورات دار الرياض للنشر والتوزيع، ١٤٠٠ه/ ١٩٨٠م، ص٢٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٣) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د/ عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط الخامسة، ١٩٩٤م، ص٣٠٢، ٣٠٣.

وغير ذلك من النزعات، والرغبات التي تصطرع في كيانه، فيعبر عنها أصدق تعبير وأتمه، غير مشوبٍ بالتصنع، وغير مضطر إلى الزيغ والتزييف في ذات ضميره"[(١)].فالإنسانية في الأدب تعني التعبير عن الذات وعن الآخر معا؛ لأنها تُعْني بالفرد وبالمجتمع، فالحياة بين الذات والآخر، أو الفرد والجماعة لايمكن أن تنفصل، ولذا فالحديث عن النزعة الإنسانية في شعر الشرنوبي تعني الإثنين معا الذات بآلامها، ومعاناتها، وطموحها، وفشلها ونجاحها، وكذلك المجتمع بشتى قضاياه وآلامه، وآماله، لأن الذاتية صدى لمدى تأثير الآخر في الذات، فهي مُشَكَّلَةٌ من تعاملات واحتكاكات مع الآخر، ومن هنا تُعني الدراسة بكل مايتعلق بالإنسان وإنسانيته، فالذات تتأثر بالآخر، والآخر نابع من ذوات تشكلت، وهكذا خُلق الإنسان؛ ليتفاعل، ويتأثر، ويؤثر.

ثانيًا: لمحة تعريفية بالشاعر صالح الشرنوبي(١٩٢٤م، ١٩٥١م)

هو صالح بن علي الشرنوبي، ولد في السادس والعشرين من مايو سنة١٩٢٤م، في أسرة محافظة من أُسر مدينة بلطيم الساحلية، نشأ شاعرنا في بلطيم مستمتعًا بطبيعتها الساحرة، وكان والده يشتغل بالتجارة (خاصة تجارة الأسماك)، وكان صالح يتمتع بحب والدته، والتي كانت تخاف عليه من كثرة شروده وعزلته في كثير من الأوقات[(٢)].

تلقى صالح تعليمه الأول في معهد دسوق ثم طنطا، ثم ارتحل إلى القاهرة ليستكمل دراسته الأزهرية حتى حصل على الثانوية الأزهرية سنة١٩٤٧م، ثم أراد الالتحاق بكلية دار العلوم، ولكنه فشل في اختبارات القرآن الكريم رغم حفظه له صغيرًا، مما سبب له صراعًا نفسيا نَغَّصَ عليه حياته، وعاد الشرنوبي إلى بلطيم؛ ليعمل مدرسا في مدرسة بلطيم الابتدائية، ثم عاد إلى القاهرة؛ ليعمل مصححًا في جريدة الأهرام المصرية[(٣)]. وكان الشرنوبي رغم مآسيه ومعاناته مهتما بالأدب منذ

(١) النزعة الإنسانية في شعر العقاد، د/ عبد الحي دياب، دار النهضة العربية، ط الأولى، ١٩٦٩م، ص١.

(٢) مقدمة ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق عبدالحي دياب، ومراجعة د/ أحمد زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٩-٢٢.

(٣) ينظر مقدمة الديوان، ص٢٩- ٤٤.

نعومة أظفاره، فقد كان عاكفا على قراءة الأدب العربي القديم والحديث، وكان يحاول في بداياته نظم معارضات لبعض القصائد التي أعجبته، وقد دفعته عزلته، وكثرة تأمله إلى الاطلاع على الآداب الأوروبية، وخاصة ما ارتبط بالفلاسفة، وقد نشر كثيرًا من تجاربه الشعرية في الصحف والمجلات، وقد احتل الشرنوبي مكانة مرموقة بين شعراء عصره" فقد كان من المتمتعين بعطف العقاد، وكان الشرنوبي يعتبره أبا، وكان العقاد لا يرتاح لرؤية الشرنوبي في حالة ضيق، ولا يتركه إلا بعد أن يساعده على حلّها، ويقول الأستاذ عبدالعليم خطاب إن العقاد قال بعد وفاة الشرنوبي: لو عاش الشرنوبي لبز شوقي"[(١)].كما كان الشرنوبي على علاقة قوية بالشاعر عزيز أباظه، وكانت هناك علاقة وطيدة بين الشرنوبي والكاتب الكبير أحمد حسن الزيات، وكان الزيات ينشر له في الرساله رغم صغر سنه تقديرًا لنبوغه وعبقريته، كما تعرف شاعرنا على الدكتور/ أحمد هيكل، حيث كان الشرنوبي يتردد على كلية دار العلوم رغم عدم قبوله بها، وكان الدكتور هيكل آنذاك معيدا في كلية دار العلوم، وكان يسمعه ويشجعه، كما ربطت الصداقة بين الشرنوبي، وصالح جودت، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، وقد كان تأثر الشرنوبي بموت على محمود طه كبيرا، حيث رثاه بقصيدة تُعدُّ من عيون شعر الرثاء العربي، يقول في مطلعها[(٢)]:

لا أنـــا خالـــد ولا أمنيـــاتي ... فوداعـــا مســـارحَ الـــذكرياتِ

وفيها يقول:

أيهـا الخالـد الـذي كـان بالأمـ (م) ـس سراجـا يضيء في الظلـمات
أيهـا الكوكـب الـذي غـاب في الـترِّ (م) ب حـزين الشّـعاع و الومضـات
أيهـا الشـاعر الـذي كـان يومـا ... قمـةً لا تُنـال بـالنَّظرات
أنـت لا زلـت في الضـمائر حيّـا ... خالـدا مشرقـا ... بـرغم المـمات
لـك في الكـون دولـةٌ.. ومكـان ... يتحـدى تقلّـب الحادثـات

(١) مقدمة الديوان، ص٤٨.

(٢) ديوان صالح الشرنوبي، تحقيق د/ عبد الحي دياب، ومراجعة الدكتور/ أحمد كمال ذكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٤٧٩.

وبعد جهاد مرير في القاهرة، وحياةٍ لم تكن موفقة عاد إلى بلطيم مودعا غربته، وأحزانه، فارًّا بهمومه إلى الطبيعة الخضراء، فجلس على شريط القطار(قطار الدلتا) هائما بفكره مسترجعا ذكرياته المؤلمة، فتفاجأ بمقدم القطار مسرعا نحوه، فصدمه، وطرحه بعيدا مدرجا في دمائه، ليشيعه الأهل إلى مثواه الأخير في السابع عشر من ستمبر سنة١٩٥١م، وهو في ريعان الشباب (٢٧ عاما) تاركا نتاجا شعريا في إحدى عشرة كراسة من الكراسات المدرسية، وجعل لكل منها عنوانا، وسماها أجزاء (أصداف الشاطيء، عبرات وسبحات وبسمات، الأمواج، نسمات وأعاصير، في موكب الحرمان، وطنيات، أقاصيص في الحب والحياة، أشعار ورسوم، ظلال وألوان، وكراستان بدون عنوان) وقد جمع الشاعر صالح جودت، وحسن عبدالوهاب، وأحمد خميس هذه الكراسات، وقاموا بنشر بعض القصائد مثل قصيدة الصفاء إلى أن قامت دار الكتاب العربي بالقاهرة بجمع شعره في ديوان ضمن سلسلة (تراثنا)، وقام الدكتور عبدالحي دياب، بجمعه، وتحقيقه وكتابة مقدمة للديوان، بينما قام الدكتور أحمد كمال زكي بمراجعته. ولعل هذا الملمح الموجز عن الشاعر يدلنا على فكره، ونبوغه، وشاعريته التي تستحق اهتماما أكبر من الدارسين؛ لينال ما يستحق من مكانة أدبية. فإن كانت حياته قد آلمته فلتكن دراسة إنسانيته لونا من التكريم الذي افتقده حيّا. الباحثة/

الفصل الأول
(إنسانية الذات، ومظاهرها في شعر الشرنوبي)

المبحث الأول
الصراع مع الذات، ومظاهره
(الشكوي، والتشاؤم، والقلق، والتوتر...)

الذات في المفهوم اللغوي تعني النفس أو العين، فالذات الشيء نفسه، وعينه، وفي اللسان" ذات الشيء حقيقته وخاصته...."[(١)]. وفي المعجم الوسيط" نقد ذاتي: أي شخصي يرجع إلى آراء الشخص، وانفعالاته، وهو خلاف الموضوعي[(٢)]".

وهي (الإنسانية) في مفهومها الأدبي لا تختلف كثيرا عن المدلول اللغوي إلا أنها تقترن بالنتاج الأدبي، فهي" التعبير عن النفس ونزعاتها بأسلوب يُظِهر العلاقة بين النص والذات المنشئة[(٣)]".

فالشاعر في شعره يعبر عن تجاربه في الحياة بعدما تشبعت نفسه منها؛ لتخرج هذه التجارب في شكل إبداعات تعبر عن الذات من حيث انعكاس الحياة عليها سلبا وإيجابا، فتأتي التجربة أحيانا في صورة صراع مع النفس يتضح من خلاله مظاهر الشكوى، والغربة، والتشاؤم، أو الأمل، والتفاؤل حسب نفسية الشاعر، وتجاربه في الحياة؛ لأن الشعر في نهاية المطاف عملية إبداع تعكس مكنون وخبايا الوجدان، وبه تُقاس مدى مصداقية الشاعر في قدرته على التعبير عن خلجات قلبه ورؤى عقله"، فالعلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات؛ لأنه ليس هناك من يُنكر أن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، فالنفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب، هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة"[(٤)].والممعن في شعر الشرنوبي يقف على ذاتٍ لها طبيعة خاصة

(١) لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مادة ذات..
(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مجموعة من المؤلفين.. ج١، ص٣٠٧.
(٣) أسرار الشخصية وبناء الذات، أنس شكشك، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩م، ص٣٠.
(٤) التفسير النفسي للأدب، د/ عز الدين إسماعيل، مكتبةغريب، القاهرة، الطبعة الرابعة، ص٥.

كونتها ظروف خاصة، وعامة من النواحي الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، فكانت هذه الشخصية التي عبرت من خلال نزعاتها الإنسانية عن ذاتها، ومجتمعها في شعر له طابعه الخاص، فجاء شعره كالعازف الذي ينفرد بعزفه مكونا لحْنا له طابعه الخاص، والمعبر عن انطباعاته، وآهاته، وصراعاته مع النفس، ومع الآخر.

وقد امتازت الذات في شعر الشرنوبي بأنها ذات قلقة تعيش صراعا مع نفسها، كما تنوعت مظاهر الصراع النفسي في شعر الشرنوبي، واختلفت أنماطها، وكان من مظاهرها(الشكوى، التشاؤم، والعزلة، و الحرمان) حتى طُبِعَ شعره الذاتي بطابع الحزن والكآبة، فغدا قلبه ينزف مع كل لحنٍ دمًا أبكى قراءه وسامعيه.

لقد عاش" الشرنوبي" في صراع مع نفسه حتى مزَّقه هذا الصراع، فأصبح يعيش في حالة لايدري من خلالها كنهه ولا ذاته، وبلغ من فرط معاناته أن هجا نفسه لمجرد أن فتاة قالت له" انظر إلى وجهك" فإذا بالشاعر يصبُّ جام غضبه على وجهه، والذي لم يكن قبيحا أو مشوها حسب وصف مقدم الديوان، وإنما كان به بعض من حَبّ الشباب، حيث يقول مقدم الديوان في وصفه لشخصية (صالح الشرنوبي): " كانت له قامة مديدة كالعملاق، ووجه أبيض لم يكدر وضاءته إلا بعض البثور، ولكنه مليح القسمات معبر عن كل مايجيش به وجدانه من انفعالات[١]".

وما أن فرغت الفتاة من قولها حتى أنشأ قصيدته (هجاء) وقد خصها كاملة بهجاء وجهه فيقول في مطلعها:[٢]

لـك يـا وجهـي التعـيسُ هجـائي ... في صباحي و مغْـربي و عشائـي
أنـت يـا متْحـف الدمامـة والقبـ (م) ـحِ تنزهـتَ عـن صـفاتِ البهـاء
مـع سـبقِ الإصرارِ صـاغك ربيِّ ... لعنـةً في نـواظـرِ الأحيـاء
حسـبُ عيْشـي مـن سوءخلـقك ... نحسـا، وبـلاءً مـزودًا بـبلاءِ
إننـي كلّمـا لقيـت فتـاةً ... صـفعتْني بالنظـرة الشّـزراء

فالشاعر يصب جام غضبه على وجهه، وكأنه سبب كل معاناته في الحياة،

(١) المقدمة، ص٥٧.

(٢) الديوان ص ٢٦٥. النظرة الشزراء: تكون بمؤخرة العين توحي بالإعراض، والاستهانة.

فالشرنوبي يظهر لنا حالة صراعه النفسي، والشتات التي يعيشها - فهو كما تصوره الأبيات - فاقد للثقة في نفسه إلى الحدّ الذي جعله يخرج عن حدود الأدب مع خالقه في قوله (مع سبق الإصرار صاغك ربي لعنة) فهو يعي أن الله هو من صوره، فجُمْلة (مع سبق الإصرار) هذه تقترن - غالبا - مع فعل مرتكب الجريمة، (وحاشا لله أحسن الخالقين،) وبعيدا عن هذه السقطة، فإن الشاعر قد وظف ألفاظه في الكشف عن الصراع النفسي المتأجج في صدره؛ لذا جاءت الكلمات(متحف الدمامة/ تنزهت عن صفات البهاء/مع سبق الإصرار/سوء خلقك/نحسا/بلاء مزود ببلاء)، وهكذا جاءت الكلمات مجسدة إسراف الشاعر في توظيف طاقة الانفعال في خدمة بنيته الشعرية للدلالة على فقدانه للتوازن النفسي بسب الحيرة التي تملكته.[1]

هذا عن الصراع النفسي الذي عاناه الشاعر، أما عن صياغته الفنية، فقد جاءت -القصيدة على روي الهمزة المكسورة، ومعروف أن الهمزة من الحروف الحلقية، ومخرجها أقصى الحلق، فهى تخرج وكأنها أهة، فإذا ما أضيف إلى ذلك كسرها دلَّ ذلك على كسرٍ لمعنوياته، وتُعَدُّ هذة من القصائد التي أقامها الشاعر على منوال الشعر العمودي من حيث الالتزام بالوزن والقاقية، وابتداء مطالعها (بالتصريع) على عادة فحول الشعراء العرب مما دلَّ على تمكنه من لغته وفنه.

ومما يؤكد حالة انعدام التوازن النفسي لدي الشاعر- على الأقل في هذا الموقف - أنه أعقب هذه الأبيات الصاخبة بقوله:

وهـي لـو تنشـد الحقائـق جُنّـت بغرامـي وتُيّمـت بلقـائي
ورأتنـي روحـا معطـرة الحُسّـ (م) ـن وقلبـا مُجَمّعـا مـن نقـاء
غـير أن العيـون كالنـاس لا تحـ فـل إلا ببهـرجٍ وطـلاء
وعيـون الجُهّـالِ يبهرهـا القشـ (م) ـرُ وللّـب أعـين الحكمـاء

فمن يقرأ هذه الأبيات يشعر أنها لشاعر آخر، أو من قصيدة أخرى، فإذا ما أمعن النظر وربط بين القصيدة، وحياة الشاعر، أدرك أن الأبيات مترابطة، وتجسد

(١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين بيروت، طبعة الخامسة، ٢٠١٤م، ص١٤١.

الوحدة العضوية، فصاحب القصيدة فاقد للتوازن النفسي الأمر الذي جعله يعيش النقيضين، فمن يقرأ الأبيات الأولى في المطلع يجد شاعرا أفقدته كلمة قالتها فتاةٌ توازنه، وأعادت إلية ذكرياته المؤلمة مع المرأة، من حيث النفور والإعراض، فأذهب ذلك عقله ولبَّه، فلما عاد إليه توازنه أبهرتك رجاحة عقله وحكمته حيث لا يخرج قوله إلا من حكيم، فاسمعه يقول:

غير أن العيون كالناس لا تحـ (م) ـفل إلا ببهرجْ وطلاء
وعيون الجُهّال يبهرها القش (م) ر وللب أعين الحكماء

وما هذا التباين إلا دليل على شدة الصراع النفسي الذي يعتمل في نفسه، كما يدل على صدق تجربته فقد ثار البركان فأخرخ ما به من حمم تفور، ثم سكن البركان، فعاد للنفس هدوؤها فكانت الحكمة، ويبدو أن الشاعر قد آلمته هذه الثورة وحدتها، فأخذ يستسمح وجهه - لينقلب الهجاء إلى مدح فيقول:

فاعف عني إذ هجوتك يا (م) هّي فلا زلتَ قُدوة الصرحاء
إن تجهّمتَ فالحياةُ عبوسٌ أو تهللتَ فهي نبعٌ صفاء
وكفاني أن أعيش بوجهٍ واحدٍ في السّرَاء والضَّراء

ويصور الشرنوبي صراعه مع الدنيا وحظه العاثر فيها، وكيف أنه لم يجن منها إلا المرارة والألم فيقول:

وحظّي وقد غسّلته بمدامعي ولم أحتسبْ فيه لدى زمني أجرا
كأني به في قبضة الموت زهرة يبابيَّة الأوراق لا تنفح العطرّا

إن الشاعر يعيش حياة قلقة فلا تستقر نفسه على حال، فصراعه النفسي جعله لايدري حقيقة ما يريد، وما لايريد؛ ولذا فأمانيه لا تثبت على حال، فما يتمناه صبحا تجفوه نفسه ظهرا، لأنها نفس متوترة قلقة، لا ترضى بشيء، وتسخط على كل شيء، فيقول في نفس القصيدة (البعث)[1]

ويأسي من الدنيا وسخطي على القضا وإيمان عقلي بالأراجيف مضطرا
شقيتُ وأشقيتُ الليالي بمطلب تمنيّته صبحا ... وحقرّته ظهرا

(١) الديوان، ص ٤٠٨.

وتأمل قوله (يأسي من الدنيا/ سخطي على القدر) فهو يأس قانط ساخط على القدر متجاوزا، فبدلا من أن يحاول إصلاح أمره، ويعود إلى رشده يُلقي باللائمة على القدر، ولكنه يبهت نفسه إذ تأتي العلة الحقيقية المسببة ليأسه في الشطر الثاني (إيمان عقلي بالأراجيف) ولعله يقصد بالأراجيف ما حشا به عقله من أكاذيب قرأها في الفلسفة الأوربية وغيرها، أما قوله (مضطرا) فذلك نوع من الهروب من الحقيقة كثيرا ما لجأ إليه الشاعر كتكراره بأنه(مُصَيَّرٌ) وإلا ما ذنب القدر في نفس مترددة تتمنى من القدر الأماني، فتتحقق في سرعة حيث يطلبها (صباحا) ولا ينتهي اليوم (ظهرا) إلا وقد تحققت، وما ذاك إلا لأن أمانيه تبدلت إلى النقيض، إن هذه النفس الحائرة لو علمت حقيقة أمرها لسكنت، وتخلصت من كل هذه الصراعات الطاحنة، ولعل قصيدته (فِكِّرٌ) تجسد هذا الصراع الذي ملأ فكره فأعتم نفسه اسمعه يقول[1]:

أنـا الشـارد الخطـو أحـدو الأمـل ... ولـيس لـه في وجـودي مكـانْ
أنـا ذلـك اللغـز لـمّا يُحـلُ ... ومظهـره الفـرد صـوت الهـوانْ
أنـا مـن أنـا ؟ حـدثي يـانجوم ... وإن لم تُجيبـي فلـن تُعْتبـي
كلانـا برتـه ليـالي الهمـوم ... وضُـيّع في زحمـة الكوكـبِ

الملاحظ أن الشاعر أقام قصيدته (فكر) على نظام (الثنائيات) جاعلا لكل بيتين قافية، مع اشراك الكل في المضمون العام الذي يجسد حالة من اليأس، والسخط، والشاعر يكثر فيها من التساؤلات حيث يعقد الشاعر بينه وبين النجوم حديثا منفردا من جانبه هو دون أن يترك لها فرصة الحوار، ومن ذلك قوله (ومن أنا، أو أنت في العالم/أنا من أنا، حديثي يانجوم، وإن لم تجيبي فلن تعتبي....) فالشاعر يخاطب النجوم، ويخاطب نفسه، ويحاول أن يدرك حقيقة ذاته، أو الحياة، ويقف على كنهها، فلا يجد جوابا إلا الشقاء لذاته وحياته، فليس للأمل في حياته مكان مع أنه يسعى إليه، لأنه لغز لن يجد له حلا، فقد أعياه تفسيره، حيث غدا مثالا للفرد المعذب المهان؛ ولذا كثرت تساؤلاته أنا من أنا؟، ويطلب من النجوم جوابا أعجزه؛ لذا عذرها في البداية إن هي عجزت هي الأخرى (وإن لم تجيبي فلن تُعْتبي)، ويراها هي الأخرى على شاكلته في العذاب، فإذا كانت الهموم قد

(١) الديوان، ص١٦٨.

أثقلت كاهله، فإن الكواكب قد طمست ما للنجوم من ضوء، إنه التوتر النفسي الذي لم يقتصر على ما بداخله، بل تعداه إلى الطبيعة فرأها بمنظاره الأسود محطمة شاكية مهمومة، أما عن استخدامه لضمير (الأنا) وتكراره ثلاث مرات رأسيا في مطلع الأبيات(أنا الشارد، أنا اللغز، أنا من أنا) فلم يأت وفق مدول (الأنا) التي تعني الزهو والفخر، وإنما جاءت في إطار من الانكسار، والاحساس بالهزيمة لنفس أنهكتها الصراعات والأحزان حتى ضمرت وذبلت، ولذا عبر بلفظ (برته الليالي) واختار الليالي فاعلا لارتباطها بالهموم، وكونها رمزا للظلام الروحي الذي يعانيه حتى أضناه فخبا ضوؤه، كما خبا ضوء النجوم، وكأني بالشاعر يريد أن يقول إن نجمه خبا لحظه العاثر، حيث لم يحقق أمانيه رغم تمكنه وعلو فنه فهو كالنجم عالٍ لكن معالمه طُمست وسط سطوع الكواكب، ولو صح هذا المعنى يكون بمثابة اعتراف منه بأن حقه لم يهضم، وإنما جاء في زحمة مَنْ هم أعلى منه كعبا، ولا أظن أبدا أن هذا المعنى ما أراده، وانما أراد فقط تشبيه نفسه بالنجوم، ولكن مرآته السوداء جعلته يرى النجوم بهذه الصوره مطموسة معتمة لعدم أنسه بصديق يفضي إليه بهمومه، أو لعله يرى نفسه نجما، وما تكالب عليه من هموم بمثابة الكواكب التي غلبت عزيمته، فقهرته وجعلته خافتا ضئيلا، إن هذه النظرة السوداوية لنفسه و للكون نمت لديه إحساسا مريرا بالضياع، جعله يملُّ حياته ويتمنى لها نهاية ويستثقل أيامها فتميل نفسه إلى الأموات؛ ويتضح ذلك من قوله في قصيدته (من وحي التراب)وقد أنشدها فوق المقابر يقول:[1]

يا شاعر الموتى وعمـ (م) ـرك لم ينضره الشبابْ
ملّ الترابِ جماجمٌ فادْفِنْ حطامك في الترابْ
ولدى المقابر ياحزي(م)ن صواب من فقد
فإذا سمعت سؤالها وعجزت عن رد الجواب
لا تجزعنَّ فللمنا (م) يا السّود أسرارٌ عُجابْ

وقد قال الشاعر القصيدة في رثاء المطربة(أسمهان) ونظمها على شكل خماسيات كل مقطوعة بقافية مستقلة مع اتحاد الغرض والمضمون، وفيها(أسمهان)

(١) الديوان ص ١٣٠.

أنشد كذلك مقطوعته (آمال) مستوحيا هذا العنوان من اسمها الحقيقي (آمال سلطان باشا الأطرش)، ورغم قصر المقطوعة بحيث لم تتعد الأربعة أبيات إلا أنها تحمل أنَّاتِ الشاعر على نفسه، وكأنما إرتبط الاسم(آمال) مع ما آلت إليه حياتها من موت مفاجيء في حادث طريق مروع جعله يربط بين آماله، وما آل إليه حاله، وبين الاسم (آمال) فيقول:(١)

آمـــــالُ والـــــدنيا تسيـــــ (م) ـــير مـــن الفنـــاء إلى الفنـــاءْ

وفي قصيدته (الأوهام) يختار الشاعر لقصيدته عنوانا يتواكب مع حالته النفسية من حيث الشرود، والحيرة، فينشيء هذه القصيدة، والتي كتب تحت عنوانها(لحني الشارد) بما يوحي أنه كان العنوان الأول، ولعل تغييره للعنوان لم يبعد كثيرا، وإنما دل على عمق، وكثرة التيه والضلال الفكري، وقد نظم هذه القصيدة على نظام الثنائيات، ولعل تنظيم الشاعر لقصيدته هذه على شكل ثنائيات متعددة القوافي، وكأن كل بيتين نفثة ضيق بالحياة تعبر عن خدعة مرّ بها، كما أنها تمثل قراءاته في الفلسفة الغربية، وفيها يقول:(٢)

أصبحت كـالنجم طـواه الأُفـول ولم تـــزل منـــه بقايـــا شـــعاع
تهيم وفي الأفق عراهـا الـذهول وعمرهـــا رهـــن بكـــف الضـــياع

فالشاعر اختار اللفظ الدال على هذه الأوهام، فهو بما حملت نفسه من آلام وضياع صار (كالنجم طواه الأفول/ بقايا شعاع/ عراها الذهول/ رهن بكف الضياع) وكلها معان مأساوية تعكس الحسرة، وعندما يتناب شابا إحساس بالضياع، يصاب باحباط شديد، وعزوف عن الحياة؛ لذا فلا عجب أن يقول في ثنائية أخري:

وسَّـــدتَ آمالـــك بطـــن الـــثرَّى ولم توسِّـــــد رأســـــك المُـــــثْقلا
وأظلّمـــتْ دنيـــاك مـــما جـــرى وأوشـــــكَ المُـــــدْبرُ أن يُقْـــــبلا

فالشاعر يطالعك بإحباطه النفسي حيث يخبرك بأنه لم تعد هناك آمال ترتجي، فقد ماتت ووارها التراب، ، ولم يتبق له في الحياة إلا رأسا مثقلة بالأوهام، ويا ليتها قد وسِّدت مع الآمال، ولم تعش هذه الحياة المظلمة الكئيبة، ولعل قصده

(١) الديوان ص ١٢٨.
(٢) الديوان ص ١٥٤.

ب(أوشك المدبر أن يقبلا)أن آخره ونهايته قد أوشكت، فإذا ما علمت أنه قالها في العشرينيات من عمره الذي لم يتجاوز السبع والعشرين دل ذلك على أنه استشراف لقرب النهاية، وكأنه فرار من الدنيا إلى الآخرة كما يَفِرُّ المهزوم إلى مؤخرة الجيش، ويؤكد ذلك قوله في ثنائية من ثنائياتها:

تسـير مقهـورا إلى غايـة مجهولـة المبـدأ والمنتهـى
و كـم أراك الـدهر مـن آيـة أحالـت المجفـو كالمُشـتهى

ولعله في البيت الأول يشير إلى أنه مغلوب على أمره (مقهور)لأنه مُصيّر غير مُخير كما تعلم من فلاسفة الغرب الذين قرأ لهم، والتي قد تكون عاملا من عوامل ضجره بالحياة حيث رأها بمنظور غير سوي حتى لم يعد يدري له بداية ولا نهاية، كما لم يعد يفرق بين ما يحب، وما يكره فيقول:

ضـاعت لياليـك عـلى فقرهـا من راحة القلب وصمت اللسـان
ثـم مضـت نجـواك في إثرهـا صـبابة تُلْهِـبُ كـأس الزمـان

لقد ضاعت لياليه والتي لم تشهد سكينة بل كانت آلاما، فلا أنيس (وصَمَتَ اللسان)، كما ضاع حبّه (ثم مضت نجواك) على إثر مفارقة الراحة، والحق أن ضياعه النفسي أضاع راحته، ومن ثم مضت نجواه، ولعل الشاعر جاء بـ (ثم) ليدلل على أن فقدان الطمأنينة، وراحة البال، أضاع منه الحبيب، الذي لم يجد إلا نفسا محطمة، فآثرت البعد والسلامة.ولعل اللافت للنظر في قوافي الأمثلة المذكورة "هذا التلوين في القافية الذي ينسجم كثيرا مع عاطفة الشرنوبي حيث يناسب تلون عاطفته وتناقضها بين الحين والآخر[1]" ومن هنا تنوعت قافيته بين الشكل العمودي، والمربعات، والخماسيات، والثنائيات، وغير ذلك من الأشكال التي سيشير إليها البحث عند ذكرها.

إن هذه النفس القلقة الحائرة التي لا تثبت على قافية، والتي تشعر بالقهر، ولا تعرف شيئا عن نفسها غير التوتر، لو هدأت قليلا لسكنت، واطمأنت، ولكن

(١) الإبداع الشعري عند صالح الشرنوبي بين تنوع التقليد، وعبقرية التجديد، ا.د/ شعبان زكي عبد الحفيظ، حولية كلية اللغة العربية بأسيوط، المجلة العلمية العدد(٣١) ٢٠١٢م، ج٣، ص١٤٣٦.

هيهات لها ذلك، فقد اعتادت إيهام النفس بأنها مقصودة بالعذاب، دون غيرها، وإحساس المرء بهذا ينغص عليه حياته، إن نفسه الحائرة تخلق أمامه من نفسها عدوا يحاربه، ويهدم كل آماله، فهي سبب كل الشقاء الذي يعايشه فيقول:(١)

أنت يا نفس سرّ هذا الشقاء شِدتِ مجدي على أساسٍ هباءِ
من سماء الخيال عُدتُ لأقتا (م) ت تُراب الحقيقة النكراء

إن هذه النفس القلقة هي التي أضجت مضجعه، وفارت كبركانٍ دمر كل شيء، وحوله إلى ناقم على الحياة والوجود، ولذا يختار لقصيدته عنوانا (السراب الخالد) إيمانا منه بأن أمله سراب خالد لن يتحقق وفيها يقول:(٢)

في طريق يحفُّه الزهر النَّضْ (م) ر و في جوفه تَفُحُّ الأفاعي
سرتُ كالطائر الرضيع يُباري أُمَّه في تحدّر وارتفاع
سرتُ ظمآن جائع النفس والقل (م) ب سجين الرُّؤى ضريرَ الشُّعاع

في هذه القصيدة التي ينم مطلعها على ما تحمله هذه النفس من نزعة تشاؤمية فهي ترى السعادة سرابا، وليته سرابا فقط، بل سراب خالد، جعلها لا ترى إلا الجانب المظلم من الحياة؛ لذا فهي ترى الزهر النضير موطنا للأفاعي حتى إنك لتسمع فحيحها، إنه يخلق من داخله شيطانا يفسد كل أمل في فرحة يمكن أن تكون، لقد استسلم لنظرية أن الإنسان مجبر، وأنه قد كُتبت عليه التعاسة، ولا حيلة له فهو كالطير الرضيع الذي لا يعرف شيئا، فمضي حيث شاءت أمه، أو ما يردد في كثير من شعره حيث أرادت الأقدار، إن نفسا بهذا الفكر لابد وأن تعيش مشتتة، في ضبابية من الفكر، ولذا فلا عجب أن يقول في ذات القصيدة متمردا علي الحياة، ومدبرها فيقول:(٣)

من سقاني كأْس الحياة ومن صوّ(م)َ ور نفسي من المعاني الحنونة؟
من رماني إلى التراب ومن قد(م) در للشمس أن تعيش سجينة ؟
من بنى الشامخ الممرَّد في نفـ(م) سي وأعلى آفاقه.. وركونه ؟

(١) الديوان ص٣٠٤.
(٢) الديوان ص ٤١٢.
(٣) الديون، ص٤١٣.

ثـم أغـرى بـه ريـاحَ المقـاديـ (م) ـرِ فسـوّت سُـهُوله وحـزُونه

إن كثرة تكرار الشاعر للإستفهام، (وبمن) تكرارا رأسيا، وفي مطلع كل بيت، وبهذا الاستفهام الذي يُسأل به عن الفاعل، وكأن الشاعر يجهله، والحقيقة أنه يريد أن يخرج بالاستفهام من معناه الحقيقي إلى التقرير؛ ليقنع المتلقي بنظرية الجبر التى آمن بها، فيسلم له أنه لاذنب له، فقد كتب عليه القدر أن يكون مشتتا فكريا، ونفسيا، مُبعِدا عن نفسه تهمة اليأس والقنوط، مع أنه صرح قبل ذلك في أكثر من موضع أن سرَّ شقائه في كونه يصنع بداخله عدوا له يهدم آماله، وجاء ذلك في مثل قوله:

أنـت يـا نفســي سرَّ هـذا الشـقاء شِـدّتِ مجِـدي عـلى أسـاس هبـاء

في حقيقة هذا الرد أجاب الشاعر عن تساؤلاته المكررة بـ(مَنْ)، إنه الفكر المشوش الذي بُني على خرافات، وأساسٍ هش غير متين، فكانت العاقبة أن هوى بصاحبه في غيابات التيه واليأس حتى وصل به الأمر إلى التمرد على كل شيء.

ويقف الشرنوبي مع قلمه، والذي هو رمز لعقله وفكره، فيخاطبه خطاب العاقل الذي يعي، لانه في الحقيقة يخاطب ذاته موجها إليها العديد من التساؤلات التي تكشف عما يدور في نفسه الحائرة فيقول:[1]

أصامــتٌ أنـت أم نشـوان يـا قلمـي؟ أم أخْرستْك الليالي السـافحاتُ دمـي؟
أم غيض نبْعُ الأماني الحور فانطمستْ آيـات نــورك في داجٍ مــن الظُّلــم؟
أم ودَّعَ الخــافقُ المســكين صــبوته فنـام عـن دهـره و الدّهــر لم يـنم؟
أم أن عهدي بـأحلام الشـباب مضــى وكنـت ترجـو شـبابي دائـم الحلــم؟
وأي حــالٍ عــلى الأيــام بـاقيــة؟ أم أي عهـد شبــابٍ غـير منــصرم
أفـديك مـادار في وهمـي ولا خـلدي أنى سألقيــك بــين اليــأس والنـدم؟

والمتأمل في الأبيات السابقة يقف على ظاهرة استخدام الشاعر لأسلوب الاستفهام بصورة لا يخلو منها بيت، وأحيانا كل شطر، و من ذلك استخدامه أسلوب الاستفهام في مخاطبة قلمه الذي هو رمز لفكره ومكنون ذاته، ورؤى عقله، مما

(١) الديوان، ص ٤٤٧.

يدُلُّ على أنه في دوامة من أمره، وكأنه يجهل ذاته، ويطلب من ذاته الإجابة عما يدور فيها، بالطبع لن يجد لهذه الأسئلة إجابة؛ لأنها تعبر عن نفس تائهة مأزومة دمرها الصراع والقلق؛ ولذا فلا عجب من تكراره (أمْ) خمس مرات، و(أمْ) هذه، و إن كانت تدل على تعدد الاختيارات إلا إنها تحمل في فحواها كثيرًا من حالات الكآبة، والمآسي، والتخبط، والتردد الذي سيطر على نفس الشاعر حتى صارت حياته كسفينة فقدت ربانها، أو فقد ربانها السيطرة عليها، فصارت في طريق لا يُعلم مصيره، وإن كانت المؤشرات، والمقدمات تدل على سوء المآل والنتيجة، ولذا بعد هذه التساؤلات جاءت النتيجة والخبر، فيقول[1]:

بـالأمس كنـت مثـير النقـع في بلـد ... ألقى إلى الزمن البـاغي يـد السـلم
واليوم لا ذاقت الأقـلام مـا برحـت ... تسقيك دنياك من حـزن ومـن يـتم

وكأنه عقب بهذا للإجابة عن تساؤلات كثيرة ومتراكمة، ويجزم أن اليوم لن يكون أفضل من الأمس، فبالأمس مَدَّ للدنيا يد السلم، ولم يجدْ إلا البغي والعدوان والغدر، واليوم لن يتحقق للنفس ماتهفو، بل إن الدنيا ستسقيها الأحزان من نهرٍ لا ينضب.

ويعلن الشرنوبي صراحة أنه عاش حياته في حيرة وشتات وصراع نفسي، فيقول[2]:

واذكروا - إن ذكرتمـوني - ضـياعي ... وشرودي وحـــيرتي وشتـــاتي
ودعـــوني أنـــمْ فقـــد آن للعـــا ... لم أن يســـتريح مـــن صرخـــاتي

ويرى الدكتور محمد مندور أن الشرنوبي" كان من الممكن أن يتغلب على هذا القلق الروحي، وأن يرسو إلى شاطىء مطمئن لو امتدت به الحياة، وزادت خبرته، واتسعت ثقافته، ولكن القضاء لم يمهله فتحمله الموت ووضع حدًا لقلقه، وشقائه، وعذاب روحه[3]".

(١) الديوان، ص٤٤٨.
(٢) ديوان صالح الشرنوبي، ص٤١٧.
(٣) الشعر المصري بعد شوقي، الحلقة الثالثة روافد أبوللو، د/ محمد مندور، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص٤٢.

ويلخص الشرنوبي في قصيدة(خمس وعشرون عاما) حياته، واتجاهاته الفكرية، والروحية إلى حَدٍ وصل إلى رثاء النفس، ويقول مطلعها[١]:

خمس وعشرون عاما ... مرّت سحابًا جِهَامَا
فما زرعنَ صفاءً ... ولا حصدْن سلاما
وما زرعن سوى اليأ (م) سِ ناضرًا بسّاما

وفيها يبين تردده بين الشك واليقين، وقد بلغ به اليأس والتشاؤم مبلغا، فيقول[٢]:

سئمت ذاتي وظلّي ... وصبوتي.. و الغراما
وصار أقصى أمانيّ ... أن أذوق الحماما
وبات عيشي على الأر (م) ض محنة و غراما
سئمت حتى التمنّي ... والدمع و الإبتساما

إن صراعه النفسي وصل به حَدَّ الإنهيار، وقد زاد من حِدة هذا الانهيار دخوله مستشفى الأمراض النفسية تحت ضغط من أسرته" التي كانت لا تفهم لغته، ولا تحس البحر الزاخر الذي يصطرع في داخله، وتضيق بغرابة أطواره كما كان هو الآخر يضيق بغرابة سلوكها"[٣] فَحُبِسَتْ نفسه الحبيسة سلفا، وقُيِدَتْ حُريتها أكثر، وغدا في سجنه يتساءل عما اقترفته يداه فلا يجد إجابة لهذه المحنة، فيقول[٤]:

تمر بي الأيام مشلولةَ الخطى ... وتأكلني الأقدارُ مسعورةً حرَّى
وأسألها عمَّا اقترفتُ حيالها ... وقد يسأل العلَّامُ مَنْ يجهل الأمرا
وماهي إلا توأمي في مدارها ... كلانا يقاسي القيد والرغم والقهرا
وأطرق ماضي العمر حزنًا وحيرةً ... فما زادني عرفاولا زادني نكرا
وماهي إلا كرَّة الوهم طائفًا ... وخلَّفني المسكين أسيان مُزْورَّا

(١) ديوان الشرنوبي، ص٤٦١.
(٢) السابق، ص٤٦٣.
(٣) مع الشعراء المعاصرين، د/ متولي محمد البساطي، ط الأولي، ١٩٩١م، ص٥٠.
(٤) الديوان، ص٤١٠.

فالمدقق في الأبيات يقف على مدى ما أصاب الشاعر نفسيا جراء دخوله هذه المصحة العقلية، لقد أنهكه الصراع النفسي، ولم يجد إلا الاستسلام، وقد رسم الشاعر لوحة فنية تبرز معاناته النفسية، وتظهر في الوقت ذاته براعته في توظيف اللفظ، فما أبدع قوله(تمر بي الأيام مشلولة الخطى) فالشاعر يُكني عن ثقل الأيام، والآلام عليه في محبسه (المستشفى) بأنها أيام مشلولة الخطى، بما يعني أنها لا تتحرك، والعجب أن يسبق ذلك لفظ (تمرُّ بي)، وفي المرور حركة، تُناقض(الشلل)، ولعله قصد أن الأيام تمر وساعاتها لاتقف، ولكنها بالنسبة لحالته النفسية ثابتة، وكأنها شُلَّتْ، ولعله عبر بذلك للدلالة على فقدانه للحرية، والإرادة، كما أن رتابة الأحداث، وعدم تغيرها، وكأنما طُبِعَتْ بطابع واحد ثابت ماتت فيه الحركة والحياة، ويضيف إلى معاناته في الشطر الثاني من البيت الأول تشبيهه الأقدار بحيوان مفترس ينهش لحمه؛ ولذا سأل الأقدار لماذا يُعذب كل هذا العذاب دون جناية؟ إنه يسأل لا عن جهل فهو يعلم سبب عذابه (وقد يسأل العَلَّام من يجهل الأمرا) وفي قراره أنه ظلم القدر، وفي معرفتنا بحياته أنه ظُلْم النفس إن الانسان لظلوم كفار، خاصة إذا ملأ فكره بخرافات وأوهام، وهذا الوصف للضيق، وشل الحركة والارادة ملائم للمكان والأحداث التى يعايشها في المصحة النفسية، وإلى جانب التشبيه اختار الشاعر الألفاظ الدالة على حالته في مثل (يقاسي/ القيد/ الحيرة/ الحزن/ مسيكن / آسيان)، وكلها تحمل العذاب الروحي والجسدي، وهذا يتلائم مع دار يقطنها فاقدي العقل، والمصابون بمشاكل نفسية.

وفي قصيدته (خريف) يجسد الشاعر معاناته وأزماته النفسية، ورؤيته للحياة، فقد عاش لا يرى إلا الجانب المأسوي في الحياة؛ لذا عندما يُسْأل عن الربيع يكلمك عن الخريف، وتسميته القصيدة (خريف) فيه حسن توظيف للعنوان، وإدراك بقيمته ودلالاته، فالعنوان كما يقولون " يحمل دلالات كلية تنطوي على أبعاد عميقة تحوي معاني شاملة، فهو كلمة تَخْتصر التفاصيل، وتجمع الأشتات، وهو البداية والنهاية، والجوهر الذي تدور في مداره عناصر القصيدة"[1] ويصور الشاعر حالتة النفسية المفعمة بالتشاؤم فيقول:[2]

(١) أوراق في النقد الأدبي، ابراهيم رماني، دار الشهاب، طبعة، ١٩٨٥م، ص١٨٦.
(٢) الديوان ص ١٦٥.

قـــالوا الربيـــع ! فقلـــت لا ... أدريـــه مـــن عمـــر الزمـــانْ
أنـــا مـــا عرفـــتُ ســـوى الخريـــ (م) ـــيف أعـــيش فيـــه بـــلا أمـــانْ
شَرِبَتْـــه أيـــامي الحزيـــ (م) نـــة مـــلء أكـــواب الهـــوانْ
ورأتـــه روحـــي عالمـــا مـــا فيـــه للســـلوى مكـــانْ

فالشاعر لا يعرف للربيع موقعا على خريطة زمانه (لا أدريه من عمر الزمان)، (بلا أمان)، وتأمل الصورة الاستعارية الجميلة في البيت (الثالث، والرابع) من هذه الرباعية حين يجسد أحزانه في الربيع (شربته أيامي الحزينة، مِلء أكواب الهوان) فقد شبه الحزن بماء يُشرب للدلالة على كثرته من ناحية، وارتباطه به وملازمته للشاعر كملازمة الحي للشراب، وفي (ورأته روحي عالما ما فيه للسلوى مكان) فقد شبه الحزن بعالم يُري، ويحس وقد بحثت فيه الروح عن بريق من السعادة فلم تجد غير أحزان تغلف المكان، فالشاعر يرى حياته كلها أشقى حياة، لقد مرت الحياة دون أمال تحقق، فيقول مستشرفا الموت:

قـــالوا الربيـــع ... فقلـــت مـــا أشـــقى حيـــاتي مـــن حيـــاهْ
أو هكـــذا أمضـــي و مـــا بُلْغـــتُ مـــن أمـــلي مـــداه؟!

إن تراكم الأحزان في قلبه طبعه بطابع التشاؤم، وقد حاول الشاعر أن يهرب من أحزانه بالشرب، واحتسائه الخمور، فأدخله ذلك في ظلمة عقلية إلى جانب ظلمته الروحية، فرأى قادم أيامه أشد سوداوية من سابقتها فقال[١]:

يـــا نـــديمي هـــات الأبـــاريق هـــات إن يـــوم الصـــفاء لـــيس بـــآت
كـــان حيّـــا فبـــات إذ شرد الدهـــ (م) ـــر خطـــاه مُكفَّنـــا بحيـــاتي
يـــا نـــديمي مـــاذا ترجَّـــى مـــن العيّـــ (م) ـــن ســـوي أن تفـــيض بـــالعبرات

لقد أكثر الشاعر من شكواه حتى ملّت شكواه منه، و إذا كان الربيع لديه خريفا، فلا شك أن العيد ليس بعيد فيقول في قصيدته (غريب في الربيع)[٢]

أنـــا الـــذي ملَّـــتْ الشـــكوى أناشـــيدي ماتـــتْ بقلبـــي حتـــى فرحـــة العيـــد

(١) الديوان، ص ١٧٢
(٢) الديوان، ص ٢٥٣.

عيـدٌ مضـى قبـل أن تبـدو بشـائره وأزْهقـتْ روحَـه أشـباحَ تسْـهيدي
كـمْ مـرَّةٍ هـزّني مـن نايـه نغـمٌ فرحتُ أسـقي المنـى خمـر الأغاريـد
مـالي أراه كـأن الحـزن أذْهـله فلحنـه ذوب آهـاتي و تنهيـدي

فالشرنوبي لا يرى في العيد فرحة، فقد مات بقلبه أي إحساس بالفرحة، لأن زفراته قضت على كل معاني الفرح، فقد أصبحت حياته لا تتقبل إلا الأحزان، كما أنه كثيرًا ما أمل أن يزف له العيد فرحة فإذا به لايحمل إلا الأحزان، فألحانه نغم حزين لا يحمل إلا الآهات، والتنهيدات ،ولعل توجس الشاعر من مقدم العيد فيه تأثر بالمتنبي في قوله:(١)

عيـدٌ بأيـةِ حـالٍ عُـدتَ يـا عيـدُ بمـا مضيـ أم بـأمرٍ فيـه تجديـدُ

ورغم اشتراك الشاعرين في الوزن الشعري، والقافية الممثلة في الدال المكسورة، إلا أنهما وإن اتفق في التوجس من مقدم العيد، إلا أن المتنبي ما زال أمله في القادم مأمولا (بأمر فيه تجديد)، بينما الشربوبي فاقد لأي أمل، فقد (ماتت بقلبه فرحة العيد، وأُزْهِقَتْ روحه، الحزن أذهله) وكلها معان تحمل اليأس في القادم (العيد).

إن صراع الشرنوبي النفسي قضي على أي أمل، ومضي به قطار العمر القصير سريعا، فأنشأ قصيدته (ذبول) مصورا وقائع حياته قائلا:(٢)

بـــين صـــبحٍ مُســـهَّدِ الأنـــداءِ
ومســـاء معـــذب الأضـــواء
واحتراقـــي ووحـــدتى وبكـــائي
ذبُلـــتْ زهـــرة الصـــبا والشـــبابِ

وقد أقام الشرنوبي قصيدته على نظام (المربعات) وهي شكل من الأشكال الشعرية حيث يقسم الشاعر قصيدته إلى أقسام يتضمن كل منها أربعة أشطر،

(١) شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٩٩.
(٢) الديوان ص ٢٤١.

وأحيانا أربعة أبيات، ويراعي الشاعر في هذه الأبيات نظاما معينا للقافية[١]، فمنه ما تشترك فيه الأبيات الأربعة في قافية تتجدد مع كل مربع، ومن نماذجها في شعر الشرنوبي (غريب في الربيع، خريف، سراب، زوج إبليس، الفنان...)، ومنه ما يشترك الشطر الأول، والثالث في قافية، بينما يشترك الثاني والرابع في قافية أخرى مثل قصائد (الأوهام، فكر، وصمت الظلال)، أو أن تكون الأبيات الثلاثة الأولى متفقة بينما يختلف عنها الرابع، وفي ذات الوقت تكون قافية البيت الرابع مشتركة مع جميع المربعات كهذه القصيدة (ذبول) ففي هذه المقطوعة تجد الأبيات الثلاثة الأولى متفقة في قاقية الهمزة المكسورة المردوفة بالألف، بينما جاء الرابع على قافية الباء المردوفة بالألف الموصلة بالكسر، ثم جاءت المقطوعة التالية مختلفة القافية في الأبيات الثلاث الأولى، ولكن البيت الرابع متفق مع نظيره في كون القافية باء مكسورة مردوفة كذلك بالألف، يسبقها ثلاثة أبيات مقفاة بالميم المكسورة، والمسبوقة كذلك بألف الموصوله، وفيها يقول:[٢]

يـــا ربيـــع الغـــرام أيـــن غرامـــي؟
كيـــف ماتـــت عـــلى فمـــي أنفـــاسي؟
وتهـــاوت عـــلى يـــدي أحلامـــي
وذوت زهـــرة الصـــبا والشـــباب

والمتأمل في المربعتين يجد أن الهمزة في المقطوعة الأولى تبدلت ميما، بينما حافظ الشاعر في البيت الرابع على قافية الباء المردوفة بالأف الموصولة بالكسر تماما كالمربع الأول، ويظل التبديل متواصلا في كل المربعات مع المحافظة على الرابع، والممعن في اختيار الشاعر لهذا القالب الشعري؛ يجده يتلاءم مع تجربة الشاعر، وحالته المزاجية، حيث وظف القالب في خدمة المضمون، ففي المقطوعة الأولى يتناول ذبول أيامه، وانقضاءها، ولذا واكبها الهمزة المكسورة، فالهمزة حلقية، تخرخ كغُصة في الحلق، وكأنها غُصة حياته في الواقع المرير الذي يعيشه، حيث

(١) راجع موسيقى الشعر، د/ أبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ص ٣٠٣، وموسيقى الشعر العربي د/ حسني عبد الجليل يوسف، الجزء الثاني، ص ٣٤.
(٢) الديوان ص ٢٤١.

الكأبة، والحزن الدائم، واحتراقه، ووحدته، وكلها مرتبطة بالزمن؛ ولذا جاء ذكرة للنقيضين (الصباح، والإمساء) ممايدل على أن عذاباته دائمة لا تنقطع، أما الفقرة الثانية، فحديثه عن غرام ضائع، وحياة بلا حُبٍّ، ولذا كثرت تساؤلاته (أين، وكيف)، وصَدَّرَ المربعة بالنداء، واختار نداء البعيد (يا ربيع الغرام)، وكأن الغرام الوارف الظلال شيء بعيد المنال فناسبه النداء بالياء، وجاءت الميم المكسورة، والمردوفة بالألف؛ لما تحمله طبيعة حرف (الميم) الشفهي من دلالات تحمل معنى الإحتباس الناتج من إطباق الشفتين.والملاحظ اتفاق الردف (الألف الموصولة)، لأن نزعة الحزن على ضياع الشباب لا تقل عن نزعة الحزن على افتقاد الحب، أما اختيار الشاعر الباء المكسورة قافية موحدة لكل المربعات؛ فانتهاء الحياة، وفقدان الحبيب المؤنس جعله يخرج كل مكبوت في صدره دفعة واحدة، فكان البيت الأخير في المربعات مجهورا؛ ليخرج صرخاته عالية مسموعة، وكأنه يصدع بكل معاناته، ولعل أختيار مفردات آخر بيت في المربعتين يؤيد ذلك حيث كرر الشاعر البيت الرابع كما هو إلا تبديله كلمتي (ذوت، ذبلت) في المطلع وهما يتفقان في الدلالة إلى حد كبير مما يدل على قصده أنه جعل ختام المربع على هذا الشكل.

وعندما يشتد الصراع النفسي الناتج عن كبت، وضيق، وافتقاد الأنيس - أو الرفيق الذي يبوح له بما يعتمل في صدره هنا تضيق على النفس الأرض بما رحُبت، ولا يجد المرء ملجأ إلا الله ورسوله، أو الطبيعة يشكو لها حاله، من هنا فرَّ الشاعر إلى الله إذ لا ملجأ إلَّاه، ؛ ولذا نادي الشاعر مولاه (يا مولاي) وأخذ يشكو عذاباته، وكيف أن نهاره عنوانا للشقاء، والمذلة، والفقر، بينما ليله حزين يجتر فيه المعاناة اجترارا فيقول:[1]

مـــولاي والأيـــام يّنْضُـــبُ جامُهـــا ... وتمـــوتُ دون تمامهـــا أحـــلامُها
يـــا مـــن تُـقرّبـــني إليـــه مخـــاوفي ... ويـــردُّ نفســـي عـــن حماهـــا غِمامُهـــا
هـــذا وجـــودي ليلُـــه ونهـــاره ... هـــذي حيـــاتي نورهـــا وظلامُهـــا
صـــبحٌ تُبَغِّضـــه إليّ مطالـــبٌ ... للعـــيش في كـــف الغيـــوب زمامُهـــا
ودجى كئيب الصـمت مرتـاع الـرؤى ... شـــابت كواكـــبه وطـــاب مقامُهـــا

(١) الديوان، ص ٣٧٥.

لا الصبح يهديني الطريق ولا الدجى تعســت حيـــاة لا يـــقرّ نظامـــها
حــرق عــلى حــرق يضــيق ببعضــها صـــبر الأنـــام ولا أزال أُســـامُها
يــارب هــذي الــدار مــلَّ نزيــلها فســـلامه ألا يـــدوم سلامـــها

والمتأمل لهذه الأبيات يجد أن حدة الصراع لدى الشرنوبي حاضرة حتى في مناجاته للمولى جل وعلا، فهو يعلن في بدء الأبيات أن تقربه ناتج عن خوف (يا من تقربني إليه مخاوفي)، ثم يبدأ في قص شريط حياته ليله، ونهاره، فهو في الصباح مهموم بآماله وطموحاته التي لا يقدر على تحقيقها(صبح تنغصه إلي مطالب للغيب في كف الغيوب زمامها) كما أنه في الليل حبيس كآبته وحزنه، حتى كواكبه شاحِت فبهت ضوؤها، والدليل على طغيان الصراع النفسي، أنه يعيب نظام الكون مع أنه في حضرة مُدَبِّرُ الكون، الذي خلق كل شيء بقدر فيقول

لا الصبح يهديني الطريق ولا الدجى تعســت حيـــاة لا يقـــرُّ نظامهـــا

وأري أن هذا الخروج معيب، ويحاول الدكتور عبد الحي دياب في مقدمة الديوان تبرير مثل هذه الخروجات بقوله " أنه كان يتعاطى المخدرات بجميع أنواعها، وليس هذا غريبا على عالم الشعراء...."[(١)]، إن حالته النفسية توحي بأنه يائس قانط بدليل قوله:

يــارب هــذه الــدار مــلَّ نزيلهــا فســـلامها ألا يـــدوم ســـلامُها

ولعل الشاعر قد عاد إلى رشده، وسمع من يعاتبه على خروجه، وعدم لباقته في حضور الذات الإلهية، فرد بما يوحي بالاعتذار، وأنه صاحب إيمان، ويعرف للقدر حقه، ويؤمن بخيره وشره، لذا وقف يناجي ربه بما يليق بذاته، وجلاله فقال[(٢)]:

ربـــاه .. هـــذا أنـــا في زورقـــي عبـدك .. فاصـفح إن لسـاني عـثرْ
أفرغـت كـأسي مـن رحيـق المنـى فقـد وجـدت اليـأس عـين الظفـرْ
كانـت لنفسيـ مثـل غـيري.. مُنـى يتيمـــة عـــذراء مثـــل الـــدررْ
أفنيـــت عمـــري... أتغنـــى لهـــا مـا تلهـم الشـمس ويوحـي القمـر

(١) مقدمة ديوان الشرنوبي، ص٢٧.
(٢) الديوان ص ٤٦٩. والفدم: الثقيل الفهم العيي.

حتى جرى ما أنت أدرى به ... أستغفر الله وأشكو القدر
فعدتُ والحسرة في أضلعي ... محطم العود عيّي الوتر
ألتهم اليأسَ ... وأحشو به ... فمَ النَّصيح الفدّم إما هذر
وكلما ساءَلني صاحب ... ماذا تُرجى في الغد المنتظرْ
أقول ما يرضيك يا خالقي ... ويُسحقُ الوهم ويفنى الضجرْ
"الحمد لله على ما قضى ... والشكر لله على ما أمرْ"

وأظن الشاعر يعلن اعتذاره، ووضع أمام عينه خروجه عن اللائق، فرجع وأناب، ولينظر القاريء الكريم إلى نهاية الفقرتين؛ ليدرك ذلك ففي الأولى يقول:

حُرَقٌ على حُرقٍ يضيق ببعضها ... صبر الآنام ولا أزال أُسيمُها
يارب هذي الدار ملَّ نزيلها ... فسلامها ألا يدوم سلامها

وفي الثانية يقول:

وكلَّما ساءَلني صاحبٌ ... ماذا تُرجى في الغد المنتظرْ
أقول ما يرضيك يا خالقي ... ويسحق الوهم ويفنى الضجر
الحمد لله على ما قضى ... والشكر لله على ما أمرْ

فشتان ما بين ضجر وتمني الموت، وحمد لله وشكر له على ما قضى وأمر، إنه الفرق ما بين الرضا، والسخط، والتوتر، والطمأنينة. وكما وقف الشاعر على باب الرحيم، فارا بضيقه، لجأ إلى الأسوة الحسنة يقتدي بصبره وتجلده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويرمي بهمومه على بابه مختارا عنوانا لقصيدته (نشيد الصفاء) قائلا[1]:

يا نصيري إذا دهتني الرزايا وأنيسي- في وحدتي ونجيِّ
يا حبيبا أغنى فؤادي عن كلّ حبيب وصاحبٍ وصفيِّ
أنت فجرٌ أطلَّ والليل داجٍ فمحا الليلَ بالشعاع السنيّ
أنت بيت القصيد والكون شعرٌ واسمك الحلو فيه مثل الرويّ
أنت من ذكره على القلب أندى من ندى الفجروالنسيم الرخيّ

(١) الديوان ص ١٤٧.

أنت ألهمتني الصفاء على الكرب فأصبحتُ كالشعاع النقيّ
أنت علمتني الجلاد إذا ما أوهن الدهر جناحي بالقسيّ
إنما الكون يا حبيبي قرآن به أنت آية الكرسيّ

الممعن في الأبيات يدرك مدي تمسك المستغيث بطلب العون، فهو يحلم أن حالته وصلت إلى درجة يحتاج فيها إلى قدوة يقتدي بها، ويسير على ضربها، ولذا بدأت الأبيات بالنداء طلبا للنصرة(يا نصيري) وعند طلبه استحضر كل معاناته فهو يعاني من فقدان النصير، والأنيس، والحبيب، وقد وجد الكل في واحد فهو (نصيري، وأنيسي، وحبيبي) إن اختيار الكلمات التي رافقت النداء تشعرك أولا: بمدي شوق المستغيث ولهفته لمنجد ينتزعه من الرزايا التي تكالبت عليه(دهتني الرزايا). ثانيا: يقينه بتلبية النصرة والغوث، ولمَ لا وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنسيه في وحدته حين فقد المؤنس؛ ولذا كان البيت الثاني حسن تعليل للبيت الأول فهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أغناه عن الكل (يا حبيبا أغنى فؤادي عن كل حبيب وصاحب وصفي)، وكأني بالشاعر بعد هذا النداء المتتابع (يا نصيري، ياحبيبا) قد استحضر تلبية الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لندائه، وأنه الآن شاخص له يسمعه؛ ولذا انتقل الخطاب من الغيبة التى دل عليها المنادى البعيد إلى الحاضر فلاءم ذلك الإنتقال إلى الخطاب (أنت) وجاءت متتالية أربع مرات في مطلع كل بيت، وكأنما واتته الفرصة السانحة فالرحمة المهداة بين يديه، ومن على البسيطة من يرحمه كرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!، وقد أشعرنا الشرنوبي أن حضور الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بدل حاله فاطمأنت روحه، وسكن بركان ثورته المتمرد، فتحول قلبه من ظلام إلى نور وشعاع، ولعل كثرة استخدام الشاعر لياء المتكلم، وجعل القافية ياء مكسورة؛ لتناسب أولا: انكسار همومه وإنقشاعها، ثانيا: أنه في حضرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فجاء الانكسار تعظيما للمخاطب، وكلون من التذلل بين يديه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكما كان اللجوء إلى الله ورسوله محطات يفر من خلالها الشاعر من نزعات الألم، وويلات النفس اليائسة القانطة، كانت الطبيعة ملاذا للشاعر للشكوى حيث إن حدَّة الصراع النفسي تقتضي في بعض الأحيان أن ينتقل الشاعر بروحه، وخياله من بيئته، وحاضره إلى بيئات يحلم بها، وتمثل الطبيعة المكان المثالي الذي تهدأ فيه النفس، حيث يبث الشاعر أحزانه، إنها تمثل علاجا نفسيا يخفف من

أزماته النفسية وكان يحب الركون إلى الطبيعة التي لم تتدخل فيها يد البشر، فينعتها بالصفاء، ويشبهها بالطفولة التي لم تلوثها أفكار البشر، ولذا كان يفضل الطبيعة في بلطيم عن القاهرة، ولجوء الشاعر إلى الطبيعة" ليشكلها وفق تجاربه الذاتية، وحالته النفسية، يجعل من تجربته تجربة ذات دلالات شعورية ناتجة من تراكم الانفعالات، والصور المحملة بمعايشته لهذه التجارب"[1] ومن نماذج ذلك قوله[2]:

حلـــوة هـــذه الطبيعـــة كالحُلْـــ (م) ـــمِ.. إلهيّـــة .. كطفـــلٍ جميـــل
كـل حـين ... تجـلى بثـوب جديـد مـــن أعاجيـــب فنّهـــا مغـــزول
كلَّمـــا جئتهـــا وعنـــدي ســـؤال جـــاءني حســـنها بألـــف جـــواب
وإذا ضـــقت ســـاعة بمصـــاب فلـــديها تفـــريج هـــذا المصـــاب

(١) الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دكتور / عبد القادر القط. مكتبة الشباب القاهرة، ١٩٨٨م، ص٣٥٠.
(٢) الديوان، ص ٤٥٧.

المبحث الثاني
الاغتراب مظاهره، وبواعثه

الاغتراب في اللغة هو: الذهاب والتنحي، وقد غَرب عنا يغرب غرباء وغرب، وأغْرَبه: نحاه، في الحديث أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمر بتغريب الزاني سنة، إذا لم يحصن، وهو نفيه. والتغريب البعد..[١]

وهناك فرق بين الغربة، والاغتراب، وذلك لما تتضمنه الغربة من معان تدل على العزلة، أما الاغتراب ففيه معنى الانفصال المعنوي الذاتي، فالغربة ترادف العزلة، أي انفصال الإنسان عن مجتمعه، وأسرته ووطنه، أما الاغتراب، فإنه يتجلى في الانفصال المعنوي، فقد يكون الإنسان بين أهله، وأفراد مجتمعه، لكن تنحيه عنهم يزداد حدة، كلما أحس بعدم الإنتماء، مما يؤدي إلى التمرد، أو الاغتراب.[٢] ويرى الدكتور محمد زكي العشماوي أن الاغتراب"مرض الفكر في القرن العشرين؛لأنه حالة من انعدام الوزن، فينتهي به تفكير الإنسان إلى أن الحقيقة في هذا العالم ليست إلا فوضي، وهي حالة يتجلى فيها العالم لصاحبه على حقيقة كريهة، فلا يرى فيها نظاما، ولا معنى، ولا يجد فيه مبررا لبقائه"[٣]

ومما سبق يتضح لنا أن الاغتراب إحساس ينتاب الفرد بعدم القدرة على التوافق مع المجتمع الذي جعل منه إنسانا تافها، لا أهمية له، ولا جاذبية، فعندما تتشعب به الحياة، وتتكالب عليه الهموم، حتى تفقده توازنه، وتجعله غير قادر على صيروراتها، والإلمام بجوانبها، يجد نفسه في عالم فُنيت فيه المباديء، والقيم، فإذا تمكن منه هذا الشعور نفر من مجتمعه، وأصابته كآبة، وانفصال؛ لعدم قدرته على التواؤم مع بيئته.[٤]

---

(١) لسان العرب، مادة غرب.

(٢) لمزيد من التعرف على الفرق بين الغربة والاغتراب، راجع الغربة والاغتراب، د/ عبده بدوي، دار قباء للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م، ص ٩.

(٣) دراسات في النقد الأدبي المعاصر د/ محمد زكي العشماوي، دار الثقافة بيروت، القاهرة٢٠٠٤م، ص ٥٢.

(٤) راجع دراسات في النقد الأدبي المعاصر، د/ محمد زكي العشماوي، ص ٥٢.

والحق أنه من خلال حديثنا عن(الصراع مع الذات) - في المبحث السابق - يتضح للقاريء الكريم من خلال استعراض بعض النماذج أن الشرنوبي عاش حياة تتسم بالحيرة، والقلق، والشرود الذهني، والتذبذب الفكري؛ مما أدى إلى كثير من التناقض، وقد أصابه كل ذلك بالكآبة والحزن، فبات أسير معاناته، وتقوقعت نفسه، فنتج جراء ذلك الصراع شعور بالاغتراب عن عالمه، وعمق شعوره بالفشل، ورؤيتة الضبابية لمجتمعه، وتجسيم وتضخيم سلبيات هذا الإحساس، الأمر الذي جعله يعيش في اغتراب نفسي، وزمني، ومكاني عندما ترك بلطيم، ليسكن المقطم، ومن نماذج الاغتراب النفسي قصيدته (مَن للغريب) وفيها يقول[1]:

مـــن للغريـــب إذا شـــكا والليـــل يشـــجيه النـــداءْ
ودموعـــه تجـــري عـــلى خديـــه و هـــي لـــه عـــزاء
نجـــواه وحـــي غرامـــه وحنينـــه وحـــي السمـــاءْ
وضـــلوعه مجـــرى الأنيـــ (م)ـــن وخـــدُّه مجـــرى الـــدماءْ
والبـــدر لا يـــدري أســـا (م) ه و لـــيس للـــنجم اهتـــداء

ويستكمل قائلا:

فارحمـــــــه ياظـــــــالم واظلمـــــه يـــــا راحـــــم
يكفيـــــه مـــــن بلـــــواه أن المنـــــى جوفـــــاء

فالممعن في الأبيات السابقة يقف على حجم الإحساس بالغربة التي ملأت روحه، وقد وظف الشاعر اللغة في التعبير عن هذه المعاناة النفسية فجاءت الألفاظ تحمل دلالات الأسى وتعبر عن حالة مأزوم وحيد يناجي نفسه ولا يجد أنيسًا، ومن هنا كان البدء(من للغريب) فالبدء (بمن الاستفهامية) وقرنها بلفظ(الغريب) يوحي بطلبه الأنس، فقد أرهبه الليل، وفي الليل تتكالب عليه الهموم، وكأن الليل استمتع بآهاته واستغاثاته(والليل يشجيه النداء)، وأتى بـ(من) دون سواها من أدوات الاستفهام؛ لأنه يأمل في يد حنونة تمتد إليه تواسيه آلامه، فالنداء هنا جاء موظفا في معناه الحقيقي، وهو طلب العون والأنس، وقد تملكته مشاعر الإحساس بالغربة، وقد وظف الشاعر جمله وألفاظه للدلالة على غربته وأثرها النفسي عليه(من

(١) الديوان ص ١٢٣.

للغريب، الليل، دموعه تجرى على خديه، ودموعه عزاء، ضلوعه مجرى الأنين، خدّه مجرى الدماء، أساه، ليس للنجم اهتداء)، وانظر إليه في البيت الثاني(دموعه تجري على خديه)، وفي البيت الرابع يذكر الخد كذلك(وخده مجرى الدماء) في البيت الثاني دموع تجري على الخد، وفي البيت الرابع دماء تجري على الخد، وشتان مابين الدموع والدماء، فما الذي حدث وحول الماء إلى دماء؟ إنها ازدياد حالة الاغتراب النفسي، وارتفاع وتيرة الكآبة والحزن، ولذا صدر البيت الرابع بقوله: (وضلوعه مجرى الأنين) فدل ذلك على أن الحزن والإحساس بالغربة لم يعد سطحيا عيونا تترقرق بالدموع، بل قلبًا امتلأ حزنا، وضلوعًا اكتوت من شدة المعاناة فحولت الدموع إلى دماء، كما أن الحركة الماثلة في الكلمات(تجري، مجرى) تدل على توازن النفس، وشدة تأثرها حتى صارت كالمرجل الذي يفور من شدة حرارته، أو كالبركان الذي يثور نتيجة قوة الضغط الداخلي، وتلحظ وكأن المقطوعة السابقة خرجت من فمه في دفقة واحدة فجاءت مطالع كل بيت مرتبطة بما قبلها بحرف العطف(الواو) في (ودموعه، وضلوعه، والبدر)، وجاء استخدامه للقافية المقيدة؛ لتدل على إرادة مقيدة، أو نبضات قلب أنهكته مشاعر الإحساس بالاغتراب فكاد أن يتوقف، وكأن كل بيت يمثل استغاثة أو نداء، وقد جاءت الأبيات الخمسة الأول على منوال بحر الكامل، ثم زادت حدَّة الانفعال فتغير الوزن في البيتين الأخيرين، وكأنما عافت نفسه الكلام، أو خبت نفسه، وارتجف الكلام نتيجة الخوف من الوحدة، والليل، حتى إن كلامه طغت عليه المفارقة

فارحمـــه يـــا ظـــالم واظلمـــه يـــا راحـــم

فهل قصد الشاعر بالظالم المجتمع، وهل الأمر في (واظلمه) موجه إلى القدر، وهنا يمكن تفسيرها على أنه يطلب الرحمة من البشر بالكف عن الاستخفاف به، بينما يطلب من القدر أن يخلصه من الحياة، وهذا في ظاهره الظلم من وجهة نظر البشر، وفي باطنه الرحمة من وجهة نظر شارد لم ير في حياته إلا العذاب؛فيكون الخلاص من العذاب رحمة.

وفي قصيدته (وحدة) وقد كتب أسفل العنوان بيتا من الشعر بين هلالين

يأيهـــا النـــاعي عـــليَّ تكاســـلي لســـتُ الكســـول بـــل الكســـول زمـــاني

وكأني بالشاعر يريد من القاريء قبل قراءة القصيدة ألا يحكم عليه، أو على

فشله بأنه نتيجة كسل، وعدم أخذ بالأسباب، ليرد بأن فشله في تحقيق أمانيه يعود إلى زمن لا يتوافق مع همة المبدعين الذين يسبقون زمانهم، ولما كان الزمان عاجزا عن فهمه، فقد انتحى بعيدا عنه، فيقول[1]:

أنـا وحـدي أواه مـن أنـا وحـدي عِشْـتُ فيهـا حتـى أرتْنـي لحْـدي
أنـا وحـدي جهـنم اليـأس والبـؤ س وسـلوى المغلـوب والمستبـدِّ

وفيها يقول:

أنا وحدي وسوف أذهب وحدي ليت روحي لا تعرف الحزن بعدي
أنا وحدي؟ أجل فلا شيء يُجدي أنا وحدي لا أعرف الحزن وحدي
وسـأبقى وحـدي وإن كـان ملء عيني و ملْ سمعي ولبيّ
أنـا عطـرٌ مُبـدَّدٌ في الصحاري أنا حرب الآمال واليأس حربي
أنـا سـقم و أنـت تعلـم طبـيّ و هـو المـوت يـا إلهـي طبـي

إن المتفحص في قصيدة(وحدة) يدرك عمق معاناته، فقد عمقت وحدته إحساسه بالاغتراب النفسي، والزماني، حتى مثلت له (لحده) المنتظر، بل الواقع، والحاضر الذي يعيش فيه، ويكرر الشرنوبي جملة (أنا وحدي) ست مرات بهذه التركيبة الخبرية، أضف إلى ذلك لفظ (وحدي) مقرونا بفعل، أو اسم ثلاث مرات (أذهب وحدي، الحزن وحدي، سأبقى وحدي)، كما كثرت الألفاظ الدالة على الأسى والحزن في مثل (جهنم/ البؤس/ اليأس/ المغلوب/ المستبد)، أما عن استخدامه للضمير(أنا) تسع مرات، منها ست مقرونة بلفظ وحدي، وثلاث مقرونة بأسماء (أنا عطر، أنا حرب، أنا سقم) من خلال تأمل هذه الألفاظ ومدلولاتها اللغوية والنفسية، وما تحمله من إيحاءات، تبدو للقاريء عدة ملاحظات، منها أن استخدامه لضمير المتكلم أنا لم يكن من باب الفخر والاستعلاء بقدر ما جاء لبيان الحزن، والإحساس بالغربة التي يريد الشاعر من خلال تكرار ضمير المتكلم إعطاء المتلقي إحساسا بأن الشاعر يكاد يكون المعذب الوحيد، فهو متفرد في عذاباته، ومن

(١) الديوان ص ٢٥٩.

هنا جاء وصفه لحالة الاغتراب بأنها جعلته يرى لحده قبل الموت(حتى أرتني لحدي) أضف إلى ذلك ماتحمله كلمة (لحد) من دلالات مرعبة، فالشاعر يرى نفسه وقد وضع في قبر، وانصرف الناس عنه، ولعل تكراره (أنا وحدي) كانت نتيجة رعبه من هذا اللحد، أما قوله (أنا عطر) فظاهرها يوحي بالفخر، فإذا ما أكملت الشطر تحول معناها إلى النقيض (أنا عطر مبدد في الصحاري) أي لاقيمة له، ولا وزن، وتكفي دلالة (مبدد) فالعطر سُكِبَ في صحراء جرداء، لم يشم رائحته إنسان، كما أنه في غربة لا يشعر به إنسان ففي الجملة إيحاء بالاغتراب الزماني فرغم اكتظاظ المكان بالبشر إلا أنه يشعر أنه وحيدٌ في الصحراء، ولعل هذا ما يفسر البيت الذي كتبه تحت عنوان القصيدة (لست الكسول بل الكسول زماني) والدليل على أنها غربة زمانية، ومكانية قوله:

وسأبقى وحـدي وإن كـان صـحبي مـلّء عينـي، ومـلء سـمعي ولبـي

فهو مغترب وسط أهله، ويصرُّ على هذا الاغتراب؛ لأنه يعيش زمانا ليس زمانه أما قوله (أنا حرب الآمال) فتُجسد صراعاته النفسية التي أردته إلى هذا الاغتراب؛ فهو حرب؛ لأن له نفسا لا تهدأ في هدم أمانيه؛ إنها كما جاء في وصفه لها سابقا سرُّ شقائه (أنت يا نفس سرُّ شقائي) فهي التي تهدم كل آماله، ولا تبقي ولا تذر، لذا وجدناه يقول (أنا حرب الآمال، واليأس حربي)، إن سلاحه هو اليأس، وماذا بعد اليأس إلا العزلة، والتقوقع، والبعد عن الناس، أما قوله في البيت الأخير (أنا سقم) فهو تشخيص منه للداء (المرض النفسي) والذي أصابه بفعل اليأس، فلما استيأس طلب الخلاص، فكان الموت أسمى أمانيه؛ لذا ختم بقوله:

أنـا سـقم وأنـت تعلـم طبـي هـو المـوت يـا إلهـي طبـي

فقد حدد الداء، والعلاج إذ لاسبيل للخلاص من اليأس إلا بالموت، وكفى به شافيا ومخلصا، ولعل هذا البيت، وأمثاله كثر، يضعف من رواية الدكتور / عبد الحي دياب في مقدمة الديوان من أن الشاعر كان يتمتع بالطبيعة، فجلس على قضبان قطار الدلتا، فصدمه، وطرحه بعيدا.

وفي قصيدته (الفنان) والتي أراها ترجمة ذاتية تعكس الاغتراب الزماني الذي يغلف حياة الشرنوبي، حيث يتحدث عن اغتراب الفنان في زمن لا يقدره، ولا يعرف قيمته، وهو في الحقيقة يسرد قصته مع الحياة، وإن استخدم ضمير الغائب

(هو) ثلاث عشرة مرة، فهو في قناعته الحاضر الغائب، ولمَ لا؟ أو ليس هو القائل آنفا (وسأبقى وحدي، وإن كان صحبي، ملّء عيني، وملّءُسمعي ولبيّ)، وتأمل مطلع قصيدته (الفنان) التي نظمها على شكل رباعيات كل رباعية بقافية مستقلة، ويقول في مطلعها[1]

هـــو نـــايٌ حُـــرِمَ الشـــدَّ (م) دو فماتـــــت أغنياتـــــه
هـــو قلـــبٌ مُنِـــعَ الحـــبَّ (م) ب فجُنَّـــــتْ خفقاتُـــــه
هـــو كـــأسٌ عافـــه الشـــرَّ (م) بُ فجفـــــت قطراتـــــه
هـــو جفـــنٌ شـــاقه النـــو (م) م فطالـــــت رعشـــــاته

هـــو نـــايٌ نفخـــتْ فيـــ (م) ـــه الأعاصـــير فنـــاح
هـــو قلـــب خالـــد الأشـــ (م) ـــواق محمـــوم الجـــراح
وهـــو كـــأس فيـــه للصهـــ (م) ـــباء مغْـــدًى ومِـــراح
وهـــو جفـــنٌ نـــاعس الأحـــ (م) ـــلام لا يـــدري الصـــباح

فالشاعر يعدد الآلام التي يشعر بها، والأحزان التي تفري كبده، والاغتراب الذي يعايشه فهو (مَنٍ حرم الشدو، وماتت أغانيه، المحروم من الحبيبة، الكأس الذي عافه الشاربون، الجفن المؤرق، والناي الذي نفخت فيه الأعاصير فناح، ... إلخ)، والممعن في المقطوعتين يجد الشاعر بدأ مطلع كل بيت بنفس الكلمات (الناي، القلب، الكأس، الجفن) ويحافظ علي نزعة الحزن، والألم، ولم يحدث تغييرًا إلا في ختام المقطوعة الثانية في البيت الثالث، والرابع حيث اختلف المعنى، فالحديث عن الكأس والجفن في المقطوعة الأولى يوحي بالحسرة فالكأس نفر منه الشاربون، والجفن أرَّقه السهر والأرق فطال ارتعاشه، أما نفس الكأس والجفن في المقطوعة الثانية فقد تبدل بها الحال، فقد أقبل الشاربون على الكأس فصار فعَّالا، وأضحي الجفن ناعسا، وردي الأحلام يكاد من شدة جمال الأحلام أن لا ينتبه إلى الصباح، إنه جفن منعم إذن.وكأني بالشاعر من خلال إقامة هذه المفارقة أراد أن يقول في نهاية المقطوعة الثانية أنا الفنان، وهذا ما يجب أن أكون عليه، لكنكم صيرتموني

(١) الديوان ص ٢٣٦.

كما علمتم، إن هذه الموازنة ماثلة في نفس الشرنوي إحساس بأنه مهضوم الحقوق، معذب يستحق حياة غير الحياة، وبشر غير البشر، ومن هنا تعمق لديه الإحساس بالاغتراب، أوليس القائل هو في قصيدته[١]: (حظوظ)

مكـــانتي أصـــغر مـــن حقـــي وحـــاجتي أكـــثر مـــن رزقـــي
وحكمـــة الخـــالق في خلقـــه أعماقهـــا أبعـــد مـــن عمقـــي

إن باعث إحساسه بالاغتراب باعثٌ نفسي نابع من نفس متمردة، ترى مهما أنعم الله عليها لم يوفِّها حقها فهي تستحق أفضل عيشة، والنفس التي تصاب بعدم الرضا نفس معذبة لا تهدأ صرخاتها. ومما يؤكد نزعة الإحساس بالاغتراب ما جاء في مطولته (نسمات وأعاصير) والتي تبلغ ثلاثمائة وعشرين بيتا، أقامها الشاعر على نظام الثنائيات كل بيتين على قافية مستقله، لتؤكد عدم استقراره النفسي، هذه المطولة تجسد معنى الاغتراب، فهو يعيش وسط أهله، لم يتغرب عن موطنه، لكنه يعيش عيش المكره، لا المحب؛ لذا عزفت نفسه عن الناس، وعافاهم كارها لوجودهم أو لوجوده معهم فيقول:[٢]

يـابني الأرض لسـت مـنكم وإن عـا (م) شرتكـم عِشـــرة العـــزوف العيـــوفِ
مكـــــره لا مخـــــير وفنـــــائي كوجـــودي ... مقيـــدٌ بالظـــروف

فالكلمات واضحة الإخبار عن الشاعر فهو (مُجْبَرٌ لا مخير) فهو مغترب، وإن عاشرهم و(فنائي كوجودي) فهو في حالة اغتراب تام كما عرفها الأستاذ محمد راضي جعفر في قوله" هي تلك الحالة التي يشعر فيها الفرد بانفصاله عن مجتمعه، فيتطلع إلى الانعتاق من العالم المحيط به إلى عالم من صنع نفسه، يؤدي بالإنسان إلى اعتزال واقعه اعتزالا كليا، وسعيه إلى بلوغ واقع آخر، لا وجود له إلا في تصوره "[٣]

(١) الديوان، ص ٤٨٧.
(٢) الديوان، ص١٩٦. والعزوف: من لا يثبت على مصادقة أحد، والعيوف مبالغة في العائف: وهو الكاره للشيء.
(٣) الاغتراب في الشعر العراقي، محمد راضي جعفر، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق١٩٩٩م، ص ٤٣.

ويواصل الشاعر في ذات القصيدة (نسمات وأعاصير) تجسيد إحساسه بالاغتراب واصفا نفسه (بالدرة)، والمجتمع (بالحمأة والصلصال)، وكأنه درة غُمِسَتْ في طين نتنٍ، وآخر جاف، فكيف يكون هناك تجانس بين الدّرة، وهذا الوحْل؟ وهو بذلك يرى أنه أعلى من مجتمعه وزمانه، ويرمي مجتمعه بالجهل بقيمة الثمين الغالي، فهو ليس من جنسهم، كما أن الدرة ليست من الطين، ومن هنا تعمق لديه إحساس بالاغتراب، ويوضح ذلك قوله:(١)

يـا دُمـايَ التـي أضـعتُ شـبابي أتغنـــى بحســـنها في الخيـــالِ
أنـتِ مـثلي غريبـة غربـة الـدّرَّ (م) ةِ تفنـــى في حـــمأة الصلصـــالِ

وهكذا في معظم ثنائياته التي أقام عليها مطولته يحدثنا عن اغترابه الروحي والزماني، فيقول في إحدى هذه الثنائيات:

لسـت أدري أفي الآنـاسي خـير يُرْتجـى ...أم أرضى بهـم أشرارا
حيْرتي حيرة الشريد على القفـ (م) ـرِ يُرجِّـي نـورا فيـشْربُ نـارا

فهذه الصورة المرتكزة في أعماقه، عن الناس والمجتمع جسدت لديه بواعث الاغتراب، فهو يؤمن أنه يعيش مع أشرار، والقضية عنده، هل يرتضي العيش معهم؟ إنه لو عاش معهم سيعيش طريدا مشردا، فإذا طلب منهم الخير(النور) أسقوه الشَّر (النار)، ولذا قرر الاغتراب والابتعاد عنهم ولو كان ذلك بالروح والفكر إلى أن يأتي المرجو(الموت). وكيف لا يرى قومه أشرارا، وقد أرغموه جبرا على دخول المصحة النفسية، وكانت هذه الحادثة مُأصِلة للكراهية لديه، لقد جعلته كارها للحياة، والأحياء فيقول:

خـــذاني فغـــلَّاني وشـــدا وثاقيـــا ولا تســـقيا الغـــبراء إلا دمائيـــا
ولاتـذكراني في بنـي الطـين بعـدها فقـد عفـت أرضي واجتويـت سـمائيا

لقد طَلَقَ الشاعرُ بني البشر طلاقا بائنا، وعاف أرضهم، وحرقته سماؤهم، وذكر أنهم (بني الطين) تعريضا بهم، وانظر إلى حسمه أمره (عفتُ أرضي، اجتويتُ سمائي)، وقد استعان الشاعر في مطلع البيتين بصورة من يُلْقى في جهنم (خُذَانِي فَغُلْانِي)، وفي هذا استدعاء للموروث الثقافي الديني.

(١) الديوان، ص ١٩٥.

ومن منطلق كراهيته العيش وسط مجتمعه يمكنك أن تتقبل قوله:[١]

وحـــدتي معبـــدي وشـــعري تسبيـــ (م) ـــحي فبعـــدا للنـــاس مـــن سُـــمار

ومن نماذج الاغتراب الزماني ما جاء في قصيدته (غريب في الربيع) وفيها يقول[٢]:

أنـا الغـــريب هنـا لا خمـــر أُسـقاها ولا نـــــديم يُعَـــاطِيني حُميَّاهـــا؟

أنا الغريب هنا.. لا الروض يبسـم لى ولا أزهـــاره تنـــدى ثنـايـاهـــا

فالشاعر يكرر(أنا الغريب هنا) مع أنه في موطنه، وغربته ناتجة من فقدان الأليف، والنديم الذي يشاركه الحياة، وليس البشر فقط هم من جافوه، فالطبيعة هي الأخرى تتجهم في وجهه(فلا الروض يَبْسُم لي، ولا أزهاره تندى ثناياها) ولعل ذكر الشاعر (لي) فيه إشارة إلى أنها تبسم، وتندى لغيره، أما هو فغير مألوف لديها، وكأنما علمت بنفوره فنفرت منه هي الأخرى.

ومن نماذج الاغتراب في شعره أن يحدثك ابن الخامسة والعشرين، أن عمره ضاع، وأنه يعيش زمانا غير زمانه فيقول[٣]:

خمـــــس وعشـــــرون عامـــــا مـــــرت ســـــحابا جهامـــــا

مـــــا زرعـــــن صـــــفاء و لا حصـــــدن ســـــلاما

ومـــا زرعـــن ســـوى اليـــأ س ناضـــــــرا بسامـــــــا

ويرى الشرنوي أن غربة الروح، أشد مرارة من غربة المكان، فالمغترب مكانا تناديه أوطانه، ويتعلق قلبه بحبها، وما أن يصل موطنه حتى يلتقي الحبيبان وينعما بالحياة، بينما غريب الروح لا وطن يألفه، ولا هو يألف الوطن، فالحبُّ بينهما مفقود.ويتضح ذلك من قوله في قصيدته(أشواق)[٤]

يـا غريـب الـديار لاذقـت يومـا مـا أُقـاسي مـن محنتـي وخطـوبي

يـا غريـب الـديار هـذه مغانيـ ـك تنـادي ومـا لهـا مـن مجيـب

(١) الديوان، ص١٩٢.
(٢) الديوان، ص ٢٥٢.
(٣) الديوان ص ٤٦١.
(٤) السابق ص٣٨٥.

أما ما يقاسيه، فإليك جانب مما جاء في قوله في القصيدة السابقة، وكأنه يعقد مقارنة فيقول:

كـــل شيء حـــولي كئيـــب رهيـــب يبعـــث الوجـــد أو يثـــير الشـــجونا
كـــل شيء حـــولي يشـــاركني الوحـــ ـــدة و الشـــوق و الضـــنا والحنينـــا

وها هو الشرنوبي يعيش حياة الاغتراب، وموت الأحاسيس، والتي أوصلته إلى حالة من كراهية الحياة فيقول:

أن أهفـــو إلى الحيـــاة وروحـــي تشربُ المـوتَ في كـؤوس الحيـاة
أنـــا أرنـــو إلى الغـــروب بعـــين قبســـتْ نورهـــا مـــن الظلـــماتِ
أنـــا أســـتقبل الربيـــع بقلـــبٍ هامـــد الحـــسِّ ذاهـــل الخفقـــاتِ
أنـــا أستشـــهد الســـماء عـــلى مـــا أمطرتنـــي السمـــاء مـــن نكبـــاتِ

فالأبيات تُوقِفك على حالة شاعر، أوصله الاحباط إلى حالة من موت المشاعر والأحاسيس، ومن هنا جاء اختيار الشاعر(السراب الخالد) عنوانا للقصيدة، فهو كمن انقطع به السبيل في صحراء، لا يوجد بها غير السراب، ولا أمل له من النجاة؛ ولذا سيظل السراب خالدا، ولعل تكرار الشاعر لضمير المتكلم (أنا) جاء من باب تعداد نكباته، وإشعار المتلقي بأنه متفرد في مصائبه، كما أنه كإنسان يهفو إلى الحياة، وإلى الربيع، ولكن روحه المتمردة حتى عليه تهفو إلى (الموت، والظلام، والصحراء، والسراب) حتى ماتت مشاعره فأصبح قلبه(هامد الحس، ذاهل الخفقات) وهكذا وظف الشاعر صوره وألفاظه في تجسيد معاناته، وانظر إلى الكناية البليغة في وصفه لكثرة نكباته (أمطرتني السماء من نكبات).

إن له فكرا يختلف عن أفكار مجتمعه، ونفسا لا تأتلف ونفوسهم؛ لذا فوحدته فكر، وإختلاطه بهم ضياع للفكر، فله كون غير كونهم؛ لذا فموته قد يكون حياة، ولمَ لا وله كون آخر يرى فيه متعته الفكرية فيقول:[1]

وحدتي هجـرة إلى الفكـر مـن الكـو (م) ن وكـوني في النـاس هجـرة فكـري
ليـت حبـل الوجـود يُقْطـع عنـي ليمـدَّ الفنـاء أسـباب قـبري

(١) السابق، ص ٢٠٩.

وفي قصيدته (ضفاف الجحيم) يصف الشاعر غربته المكانية أثناء إقامته في القاهرة، بعيدا عن (بلطيم)، وكيف أن حياة المدينه التي تختلف عن حياة الريف لم تواكب روحه، ففي القرية أجواء مفتوحة تمكن الناظر أن يرى الأفق البعيد حيث الخضرة والماء، بينما المدينة وبخاصة القاهرة تمتلء بالحواجز، والطلاسم، فإذا أضفت إلى ضيق الأفاق ضيق ذات اليد زاد الإحساس بالاختناق، ومن هنا جاء هجاء الشاعر لغرفة سكنه في المقطم، بسبب إحساسه بحالة الاغتراب الروحي، والمكاني فيقول[١]:

أقـــرأ في ظلامهـــا مصـــيري ... وأعـــرف الغايـــة مـــن مســـيري
بعـــد احـــتراق الأمـــل الأخـــير ... وفرقـــة الصـــاحب والعشـــيرِ
هـــذا أنـــا في العـــالم الكبـــير ... فـــوق ربـــا المقطـــم المهجـــور
متخـــذا مـــن أرضـــه سريـــري ... مـــن الحصـــى والطـــين والصـــخور

فالقصيدة تمثل الإحساس بالاغتراب المادي (المكاني)، وهكذا تكالبت عليه ألوان الاغتراب (المكاني، والنفسي، والزماني)، وقد اختار الشاعر للتعبير عن غربته (فرقة الصاحب والعشير، ، المقطم المهجور، ...).

ولعل مما يؤكد إحساسه بالاغتراب المكاني ما كتبه الشاعر أسفل العنوان"إليك يا قاهرة...إلى أضوائك القاسية، التي طالما عذبت عيني، وأنا قابع هناك في الجبل المضياف.. بصخوره الحانية، وكلابه العاوية، وصمته الكئيب، إلى هؤلاء المترفين الكسالى... الذين ينكرون علي إيماني بالألم...وعبادتي للدموع...وإخلاصي للأحزان، وأنشأ يقول في مطلعها:[٢]

إني هنـــا أيتهـــا المدينـــه ... الحـــرة الفاجـــرة المجنونـــهْ
أحـبس في جفنـي الـرؤى السـجينه ... و الأدمـــع الوالهـــة الســـخينهْ
إني هنـــا أغـــربل السكينـــه ... و أزرع الخـــواطر الحـزينـــه

ولعل إصرار الشاعر على كشف عمق إحساسه بالاغتراب المكاني رغم أنه في القاهرة، أنه كرر نفس المقطع في ختام القصيدة ليكون البدء والختام.

(١) السابق، ص ٤٩٨.
(٢) الديوان، ص ٤٩٧.

وقد بلغ من كراهية الشاعر للغرفة التي قطنها في القاهرة، وإحساسه فيها الاغتراب أن خصها بقصيدة سماها (الغرفة المهجورة) وفيها يقول:[1]

أراقـــت عليهـــا معـــاني الفنـــاء ظـــلال الســـكون الحـــزين الرهيـــبْ
ولفَّـــــتْ معـالمهـــــا ظلّمـــــةٌ يصـــارعها النـــور حتـــى يغيـــبْ
يكـــــاد الظـــــلام إذا جاءهـــــا يفـــرُّ فـــإن همهمـــت لا يجيـــبْ

(١) السابق، ص ٣٨٧.

المبحث الثالث

موقفه من المرأة سلبا، وإيجابا (بين الرضا والغضب)

تمثل المرأة ركنا هاما في مسيرة الشرنوبي الإنسانية، والشاعرية، فقد توقف قطار الشرنوبي - رغم قصره في محطة المرأة مرات عدة - حيث كان للمرأة تأثير بالغ الأثر في حياته كشاعر، وكإنسان، حتى عُدَّتْ باعثا من بواعث شعره، وعاملا من العوامل المؤثرة في تشكيل شخصيته بما حملت من عذابات وآمال.

فالمحطة الأولى للشرنوبي مع المرأة كانت في مقتبل مرحلة الشباب، حيث جاء رفض ابن عمه لزواجه من أخته فارقا في حياته النفسية، والعاطفية، ولا أغالي إذا قلتُ أن ذلك وجه حياته وجهة أخرى، واقتلعه من بيئته اقتلاعا، ولعل طريقة الرفض كانت أشد مرارة عليه من قدرته على التحمل، فقد آثر الهروب من(بلطيم) كلية، ويصف الدكتور عبد الحي دياب ذلك فيقول: " فإذا به يُذْهل كل الذهول من إجابته... لقد اتخذ هذا الأخ الأكبر رغبة ابن عمه مادة للسخرية، ورفض بطريقة آلمت الشاعر، وهدَّته، ولم يجد إجابة على هذا المزاح سوى أن يُحَدِقُ فيهم حتى وجموا، وخافوا أن ينفجر فيهم بغضبه الذي لا يُحدُّ، غير أنه اكتفي بالانصراف"[(١)]

وظل هذا الجُرْحُ ينزف طِيلة حياته، ولعل هذا الموقف جعله يفقد كثيرا من توازنه النفسي؛ ولذا كان الوقوف الثاني له مع المرأة مزلزلا لهذا الكيان الذي يترنح، فقد كان قول الفتاة - التي نظر إليها نظرة إعجاب دون تصريح - قاتلا حين قالت له: انظر إلى وجهك" فقد أنهت الكلمة على ما تبقى منه، وليس أدل على ذلك من إنشاده قصيدته (هجاء) التي هجا فيها وجهه قائلا في مطلعها[(٢)]

لــك يــا وجهــي التعــيس هجــائي في صــــباحي ومغْــــربي وعشـــائي

أما المحطة الثالثة - وأظنها الأخيرة - فقد تمثلت في علاقة حبّ أفشلتها الفوارق الطبقية، حيث بادلته فتاة ثريه الحب، فلما عرف أهلها ذلك فرقوا بينهما - هذا إن لم تكن قصائده فيها طيف خيال كما اعتاد - وإذا صح الحدث، فإذا كانت الحادثة الأولى جعلته يترك بلطيم غير آسف، فهذه جعلته يعيش كارها للمجتمع،

(١) مقدمة الديوان، ص ١٣.
(٢) الديوان، ص ٢٦٥.

فقد كست حياته بسربال أسود، فلم يعد يرى في الحياة إلا العذاب، والآمال المحطمة.

ومع أن هذه الأحداث كانت مؤثرة في حياته، إلا أن الشرنوبي بطباعه، ومقومات شخصيته، رومانسي المذهب والهوى؛ ولذا رغم عذاباته ظلت روحه تشتاق المرأة، وتهفو إليها، فهو يؤمن بأن حبَّ الرجل للمراة حبٌّ فطري، خُلِق مع الإنسان، وأنه وصيَّة آدم لأبنائه توارثوها، وحملوا رسالته بوصفه أبا ونبيا، فيقول في حوار بينه وبين (قيس / ليلى) الشاعر العذري يحدثنا فيه الشرنوبي عن تمسك قيس بحبه رغم عذاباته، :[1]

قال لي وهو مطرق الرأس حزنا ... أي شيء جنى الحنين عليّا
ليس ذنبا أني أهيم بحوا ... ء فما زلت في الهوى آدميَّا
نحن في مغرب الحياة نسينا ... بالصّبابات صُبْحها الأزليّا
وأبونا الطَّريدُ ألقى عليّنا ... في هوى الغيد درسه القدسيّا
فأجبناه مؤمنين فقد كا ... ن (عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ) برّا نبيا
ونسنا التفاح إلا خدودا ... واشتهيناه في الخدود حيّيا

فالشرنوبي لم يعتزل المراة رغم وعورة صدماته، فهو يؤمن أن المرأة كالحياة لها طابعان جميل معجب، وقبيح منفر، والإنسان بطبعه محبٌّ للدنيا على شتى صورها، متمسك بها رغم معاناته فيها، ويصور ذلك في قصيدته (دهرية) فيقول:[2]

آمنت أن الحياة أُنثى ... من طبعها الوصّلُ والصّدود
وأعجب الأمر في هواها ... أَنيّ إلى حبّها مقُود
فيا رفاق الطريق غنوا ... فربمّا يقرب البعيد

ومن منطلق هذه الرؤية للمرأة تشكلت نفسية الشرنوبي، فالمتفحص ديوانه، وحديثه عن المرأة، يجده متنوعا بما يتناسب وحالته النفسية، فحينما يكون في ساعات رضا نفسي - وما أقلها في حياته -، يبدو رضاه واضحا، ويرثاها نورا قدسيا، ويبدو على شعره بريق اللهفة، والشوق، والحنين، فيقول في قصيدته

(١) الديوان، ص ٢٢٥.
(٢) الديوان، ص ٤٨٩.

(غريب في الربيع) متحدثا عن المرأة التي يتمناها:[١]

أُريـــدها فكـــرة للـــه خـالـــدة ... خلـود روحـي وأشـجاني وتفكـيري
أسـمو بهـا ثـم تسـمو بي إلى فلـك ... يَفنـى عـلى نُـورِه قلـب السـمادير

ويختم الشاعر قصيدته هذه بقوله:

أُريـدها كالأمـاني صـدقها كـذبٌ ... أريدهـا فرحـة طافـت بهـا النـوبُ
أُريدهـــا بنـــت أيـــام معـــذبة ... وأنفسٍ في جنـان الشـوك تضـطربُ
أريدهـــا ولهـــا مـــن نُبْلهـــا نسـب ... ومـن جلالتهـا في ضـعفها حسـبُ
أواه منهـــا ومِـــن وهـــمٍ يمثلهـــا ... حتـى إذا شِـمْتها تنـأى وتحتـجبُ

فهذه صورة المرأة كما أرادها خيال الشرنوبي، ولعل تكراره لفظ (أريدها) في مطلع معظم الأبيات يؤكد أنها أبدا لم تفارق خياله، وإن لم يكن محظوظا معها، إنه يريدها خلاف ما تعاملت معه، يريد أن (أسمو بها، وتسمو بي) ترفعه ولا تحطمه، وانظر إليه وهو يصف كيف أن قوة المرأة كامنة في حيائها.

أريـدها ولهـا مـن نبلهـا نسـب ... ومـن جلالتهـا في ضـعفها حسـب

وفي قصيدته (أنا وأنت) يحدثنا الشرنوبي عن فتاته التي أحبها، أو تمناها فيقول[٢]:

إخالـــك حـــين ألقـــاك ... حنينـــا صـــيغ إنســـانا
فأحيـــا فيـــك تحنـــانا ... وأفنـــى فيـــك ألحانـــا
وأجعـــل روحـــي الـــزورق ... والأشـــجان ربـــانا

وعندما يثور، ويغضب تتحول هذه النظرة إلى النقيض، فيطلق عليها (بنت الليل، والخطيئة، والأفعى، وزوجة إبليس) وكلها أسماء، وأحيانا عنوان لقصيدة تصور هذا السخط، ومن ذلك قصيدته (الأفعى)، والتي كتب تحت عنوانها (إليها

(١) الديوان، ص ٢٥٧. السمادير: شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصره.
(٢) الديوان، ص ٧٨.

في كل جحر.. وبين أحضان آي ثعبان) ويقول مطلعها[1]

إشـــغليني بمـــا تريـــدين منـــي واملئـــي بـــالغرام ســـمعي وعينـــي

وفيها يقول:

يـــا ابنـــة الليـــل والخطيئـــة..والآ فاق..والســـجن والهـــوى والتمنـــي
قصـــة أنـــت ألَّفتهـــا الليـــالي مـــن شـــذوذ وحـــيرة وتجـــنّ

وفي قصيدته (زوجة إبليس) يصبُّ الشاعر جام غضبه على إمرأة غانية فتحت دارها للرزيلة، فالشاعر لم يُطْلِق الاسم على جنس المرأة، بل على إمرأة بعينها، حيث يرى شرَّها على البشر أشدُّ فتكا من شرِّ الشيطان، ولذا لم يطلق عليها (شيطانة) بل زوج الشيطان تعظيما لخطرها فهي زوجة الكبير؛ ولذا فمكرها أشدُّ من مكر كبير الشياطين، من باب وصف كيد الأنثى بأنه عظيم، وفي مطلعها يقول:[2]

هـــذه دارهـــا وتلـــك رباهـــا نـــمَّ عنهـــا شَـــميمُها وســـناها
هـــذه دارهـــا تنـــادي غريبـــا عـــن حماهـــا مـــا شـــامها أو رأهـــا
هـــذه دارهـــا وقـــد أمـــر الليْـــ ـــلُ أخـــاه الشـــيطان أن يرعاهـــا
فـــأتى دون نـــاظري فطـــواه وأتى دون ظلّهـــا فطواهـــا

فالشاعر يكرر (هذه دارها) ثلاث مرات تكرارا رأسيا، مما يعني أن دارها مشهورة لدى كل باغ للرزيلة، ولذا أعقبها بعلامة أخري (وتلك رباها)، كما جاء ذكره للغريب، والليل في إشارة منه إلى الزوار، وموعد زيارتهم، وقرن بين الشيطان، والليل، بل وربط بينهم برباط الأخوة؛ لارتباط فعل الفاحشة بالليل.

وكما رسم الشرنوبي صورة للمرأه في حالة رضاه عنها، وفي سخطه عليها، تحدث عن الحرمان، وصدود المرأة، وطيفها في أكثر من موضع في ديوانه، وكما أشار البحث أنه يؤمن أن المرأة كالدنيا لها وجهان، جاءت قصيدته (كأسك الحزين)، والتي يقول مطلعها[3]

(١) الديوان، ص ٥٢٨.
(٢) الديوان، ص ٢٢٨.
(٣) الديوان، ص ٨٠.

جنبـــي كأســـك الحزينـــة عنـــي وانهلـــي خـــمرة الصـــبابة منـــي
واهبطـي مـن سـماء دَلَّـك يانجْـــ ـــوى وكفـي عـن القِـلي والتجنـي

وأرى أن الشاعر في هذه القصيدة، يعلن شوقه، وحرمانه بسب نفور المرأة، وأرى أن عنوان القصيدة ليست فيه مفارقة، كما رأى الدكتور يوسف عزاز، حيث يرى" أن الكأس إذا ذُكرت حركت شجون العاشيقين للطرب، والفرح، والمرح، لما يتلو الكأس من مجلس للشراب والسمر، وفتيات ناضرات... والحزن لا يتناسب مع الكأس، فالكأس تعني السرور، والحبور، والسعادة، والحزن يعني الهم، والكرب، وانقباض النفس، وفي ذلك تناقض"(١).

وأري أن الذي يزيل هذا التناقض، هو إضافة كاف الخطاب إلى الكأس (كأسك)، ثم وصف هذا الكأس بالحزين، فيه تطابق مع حظ الشاعر التعس مع المرأة، فهو يرى أن المرأة كالدنيا ذات وجهين، وأن حظه مع الوجه الكئيب، كحظه من هذة الكؤوس ليس له إلا النصف الفارغ منها، وهذا راجع إلى نزعته التشاؤمية، ، أما عن القول بأن أسلوب الشاعر لا يتناسب مع المرأة، حيث لا يليق أن يكون هو الآمر (جنبي/انهلي/اهبطي/اهتكي/ اعزفي/كفي) فالأمر ليس على ظاهره، ولعل سياق القصيدة، وما عُرف عن حياة الشاعر، وظروفه يوضح استخدام الشاعر لإسلوب الأمر، فالشاعر يُعاني من حرمان المرأة ونفورها عنه، كما أنه لم يقصد بهتك الستر ما توارد إلى الذهن، وإنما قصد أن نفور المرأة، وصدّها جعل بينه وبينها أستارًا، وحجبًا متراكمة، أو لعل تراكم تجاربه الفاشلة مع المرأة صنع في نفسه تجاهها أستارا وأسوارا، والدليل على ذلك ماجاء قبل البيت، وبعده مباشرة، وكأن ما قبله يفسر القادم وغموضه، وما بعده يعلل السبب، ويدفعٍ سوء الظن، ففي البيت السابق يقول:

فـالغرام الـبريء وحـي مـن اللـــ (م) ـــه وعشـق الجـمال أخلـد فـنّ

فحبه عذري بريء، وكأنه وحي من الله، فهل يوحِي الله أن تهتك المرأة سترها معاذ الله؟!، كما أن القصيدة سِيقتْ في مضمون الكلام عن حبّ (قيس لليلى)، وعذرية هذا الحبّ يُضْرب بها المثل في الطهر، أما الدليل الأخر: أن كلامه

(١) المفارقة في شعر الشرنوبي، د/ يوسف محمد عزاز، ص٤٣٠١.

جاء من باب الحديث مع الطيف، فكلامه من باب الأماني بزيارة الطيف، فليست هناك إمرأة أساسا كي يخاطبها، أو يأمرها حيث يقول:

وابعثـــي في المنـــام طيفـــك حتـــى أنظـــم الشـــعر فاســـمعيه وغنـــي

فجلَّ أماني الشاعر المحروم عاطفة تبادله الحبّ والأماني، ولو كانت مجرد طيف خيالٍ، ولا غرض له من زيارة الطيف أكثر من إلهامه نظم الشعر، فتُعْجَبُ به المحبوبة وبهذا يكون قد حقق أمنياته. انظر كم هي عفيفة نقية، لا تتعارض أبدا مع إجلال التعامل مع المرأة، كما يقول في قصيدته (عزاء) أن أمانيه في زيارة الطيف لا تتحقق، وأن نجواه وشكواه لا تحرك لديها ساكنا، لذا يطلب من نفسه أن تكف عن الشكوى، وأن يحاول إراحة قلبه من حبٍّ طاهر(زكته السماء) وجحدته الحبيبة (إنها أنثى ظلوم) لا تسمع لشكواك، ولا تداوي جراحك، ولا يحركها نزف دماء قلبك، فيقول[1]:

لا تـــنح إن هاجـــت الـــذكرى فـــما نفـــع النـــواح ولا أجـــدى البكـــاءُ
وأرح مـــــن حبهـــــا قلبـــــا سمـــــا عـــن هـــوى الـــدنيا وزكتـــه الســـماء
إنهـــــا أنثـــــى ظلـــــوم كلمـــــا زدت وجـدا فـاض مـن فيهـا الثنـاء
فـــانقع الغلـــة قـــد طـــال الظـــما وأغاريـــدك مـــن طـــين ومـــاء
وأبى جرحـــــــك أن يلتئمـــــــا وهـــي لا تســـمع ألحـــان الـــدماء

إن تكالب ألوان الحزن، والألم، والتشاؤم على نفسية الشرنوبي، وذاته المحطمة، جعلته إن أراد أن يكلم امرأة تخيلها طيفًا، وكأننا افتراضيا من خلاله يسرد الشاعر مايريد، ويصف معاناته كما يريد؛ لأنه في الواقع والحقيقة فقد توازنه وثقته بنفسه من كثرة صدماته، فأصبح عاجزا عن مواجهة من يريد، ولذا يقول وكأنه صنع عالما خياليا[2]:

وحيـاتي الخرسـاء مشـدوهة الأحـ (م) ـــلام مقـــرورة الدجـــى والنهـــارِ
لم تعـد غـير مسـرح لأفاعـي الـ وَهـــم تغـــدو بسُمِّهـــا أفكـــاري
فاجذبيهـــا إلى حياتـــك حينًـــا تُنعشـــي مـــا حرقـــتِ مـــن أزهـــارى

(١) الديوان، ص٨٢.
(٢) السابق، ص٣٤٨.

وهاهو الشرنوبي يصنع من خياله طيفا يناديه، ويتفاعل معه، وتخيله لهذا الطيف جاء حاملا وجهين: وجه المحب ووجه المعذب، يقول[١]:

ذكرتك والذكرى تضاعف من كربي ... فغَنَّى لحونَ الدمع في كهفه قلبي
يخالجه طيفان..طيف يذيبه.. ... حنينًا، وطيفٌ مُحرقٌ كلظى الجدب
هو البين .. لم يخلقه من قدَّر الهوى ... لغير عذاب العاشق المدنف الصَّب

إن ليل الشرنوبي مرتبط دائما بالوحدة، لذا فلا عجب أن تجره هذه الوحدة إلى خيالات، ولعل طيف الخيال يشْخص أمام عينيه في يقظته، فيتخيل أحاديث ومواقف لم تحدث في واقع حياته، وقصيدته (ذكريات)[٢] تجسد ذلك الحرمان الذي يحاول الشاعر من خلال الطيف التغلب عليه، فها هي خيالاته توهمه باللقاء، فيقول[٣]:

إذا الليل ناداني ذكرت مواقفا ... لنا والدجى كالهجر والنَّسْمُ كالعُتْبِ
تضمينني كالطفل يضفي حياؤه ... عليه مُسُوح الأمنِ والأمل العذب
فأفنى كما تفنى تميمة شاردٍ ... يقرِّبها زلفى إلى نجمة القطب
يعاودني الحرمان منكِ فأحتمي ... بصدرك يادنياي من هجرك الصعب

ومما يؤكد أنها مجرد خيالات يحاول بها الشاعر إيناس نفسه المغتربة جراء الوحدة، أنه بمجرد أن تنقضي تلك الخيالات حتى تعود إليه عذاباته وإحساسه بمرارة الحياة، وفقدانه الأليف، فيقول[٤]:

فيارب إما أن تريح من الهوى ... فؤادي فحسبي منه ماذقته حسبي
وإما لقاء لا ترنِّق صفوه ... نوائب دهرٍ لم ينم قط عن حربي
فما أنا إلا شاعر عاف قلبُه ... زخارف دنياه و أوفى على الشهب

ويخاطب الشاعر محبوبته التي في خياله من خلال حوار وهمي يقيمه بينه وبينها، فيسألها: (ماصنعت بك الليالي)؛ ولأنه حوار خيالي يأتي الرد منه سريعا، لقد

(١) الديوان، ص٩٠.
(٢) الديوان، ص٩٠- ٩٣.
(٣) الديوان، ص٩٠.
(٤) السابق، ص٩٢، ٩٣.

أضاعت الليالي عمرها كما ضاع شِعره وألحانه، فيقول[١]:

يـا ربَّـة الشـعر والأحـلام ماصـنعت بك الليـالي الـتي ضـاعت كألحـاني

والملاحظ أن الشاعر كثيرا ما ينادي محبوبته الخيالية بلفظ (يا ربَّة الشعر)، كما جاء في البيت السابق:

وفي ربَّة الشعر، يقول أيضا[٢]:

ياربـة الشـعر هـذا الشعـر أنهلـه	من منبع في سماء الحُبِّ روحاني
ماشابـه دنـس الـدنيا ولا عبثـت	بصفـوه غـير أنَّـاتي وأشجانـي
هو الـذي في ربيـع الحـب أسعـدني	وهـو الذي في خريف الحب أشقاني
وأنت. أنـت التـي بالشـعر أضـحكني	وأنـت. أنـت التـي بالشعـر أبكـاني
أنـت التـي خيرتـني بـين جنَّتـه	وبـين نيرانـه ... فاخـترت نـيراني

فالحبيبة التي صنعها الخيال كانت باعثا من بواعث إثارة عاطفة الشاعر، وسرَّ إبداعاته، وإلهامه الشعري، ولذا حرص على اختيار لفظة (ربَّة الشعر) وكأنها ليست مجرد سبب فيه بل هي التي خلقت هذا الشعر، وتولت رعايته، كما يلاحظ في معظم شعره الموجه للمرأة الحرص الشديد على العفاف والطُّهْرِ(ماشابه دنس، زكته السماء، الخافق العَفُّ، .....إلخ) مما ورد من هذه الصفات في وصف حبِّه)، ويجسد هذا العفاف قوله في قصيدة(قيس)[٣]:

وأنـا الشـاعر المعربـد بالعَيِّـ	نِ وإن كنـتُ بـالفؤاد تقيّـا
لم أنـل مـن غرامهـا مـا تمنيـ	ـتُ ومـا زلـتُ بـالتمني شقيـا

ومن صور وصف الشرنوبي نفور المرأة قوله[٤]:

وقالـت بعينيهـا .. وهبـت عواطفـي	لغيرك فاقطـع فسحـة العمـر خاليـا
وأطرقـت إطـراق اليتـيم عـلى الأسى	وضـجّت بألحـان الثَّكـالى سـمائيا

(١) الديوان، ص١٢٢.
(٢) الديوان، ص١٢٢.
(٣) الديوان، ص٢٢٦.
(٤) السابق، ص٣٠٩، ٣١٠.

وودَّعــتُ دنياهــا بشــجوِى وأدمعــي وهدهدتُ بالصـبر الجـريح فؤاديــا
وقلــتُ لقلــبي ربمــا كنــتُ مخطئًــا طريق الهـوى.. أو أننـي كنـت جانيـا
ويــاربّ ليــل طــال حتــى ظننتُــه خلـودًا فكـان الفــجرُ للظـن ماحيًـا

ولا شك أن رواسب تعدد فشله مع المرأة في كثير من المواقف التى سبق ذكرها، أصاب نفسه بنوع من اليأس في أن يجد حبًّا يرافقه، فكسى الحزنُ نفسه، ووظف الشرنوبي هذا الحزن وتلك الحسرة في تصوير مدى مأساته، وتحول النساء عنه حتى استولى على قلبه اليأس(فقلت لقلبي ربما كنت مخطئا طريق الهوى) وبدأ يجلِدُ ذاته، وتمثل ذلك في اختياره ألفاظا معبرة عن ذلك منها (اليتيم، الأسى، ضجت، الثكالى، أدمعي، صبري، الجريح، ليل، ماحيا)، وما أبدع قوله:

وأطرقـتُ إطـراقَ اليتـيمِ عـلى الأسى وضــجتْ بألحــان الثكــالى ســمائيا

فقد شبه نفسه في حرمانه من المرأة باليتيم الذي فقد أباه (سنده ومعينه) فاسودت السماء في عينيه، وصار لحنه كئيبا حزينا يشبه نوحَ المرأة الثكلى التي فقدت رفيقها، وأنيسها، فصارت كل ألحانه التي تغنى بها شعره مغلفة بغلاف الحزن والكآبة.

والشرنوبي في نزعته هذه الباكية الشاكية يتوافق مع نزعته ومذهبه الرومانسي الذي يتسم بالحنين والشكوى، ويعبر عن ذلك د/ فتحي أبو عيسى حين يقول بعد أن اختار نماذج لشعراء عدة مثل الزهاوي والمازني، وعلي محمود طه فيقول: " لم يكن الشرنوبي في شكواه خارجا عن المألوف المعتاد لمعاصريه على العكس، بدليل أن ثمة من المعاصرين من كان يشكو لذات الشكوى، وماذا تقول في شاعر ينعطف في شعره إلى الألم المضيض حتى لنراه يحزن لمجرد الحزن، ويشكو لمجرد الشكوى، وكأنه يجد في الحزن متعة، وفي الألم لذة ككل الرومانتيكيين؛ وذلك لاعتقادهم أن الألم من سمات أصحاب الحسس، .... "[1].

وأحيانا يتخيل الشرنوبي الحبّ، ويعيش في وهم تخيله، ومن ذلك ما جاء في قصيدته (قلب بلا حُبٍّ)، وقد كتب أسفل العنوان إهداء (إلى حواء أوهامي)، وقد

(١) معازف الشرنوبي الشاكية في شعره، د/ فتحي أبو عيسى، ص٢٥.

نظمها الشاعر في قالب خماسيات، كل خماسية بقافية مستقلة، ويقول مطلها:[1]

تعـالىْ يـا ابنـة الأحـلام يـا مجهولـة الـذاتِ
تعـالىْ يـا ضـياءً لم ينـوّر أُفـق لـيْلاتي
تعـالى يـا رحيقًـا لم يـزلْ يـرْوِي خيـالاتي
تعـالى نجمـع الماضـي الـذي راح إلى الآتي
تعـالى يـا غرامـا تـاه في دنيـا الضبابـات

إن حرمان الشاعر من حنان المرأة مثل جانبا من معاناته، بل لعله كان سببا في كل عذاباته، فلو وجِدَتْ الحبيبة ألتي تملأ عليه حياته، فلربما ابتسمت له الحياة، وإن تجهمت فسيجد أنيسا يخفف آلامه، ولعل تكرار الشاعر (تعالي) في مستهل كل بيت يجسد معاناة الحرمان، والشوق، ولو تأملت المنادى؛ لأيقنت شدَّة حاجتِه، فهو ينادي (ابنة الأحلام/ مجهولة الذات/ الضياء/الرحيق/ الغرام) والمنادى عليه في كل بيت حُرِمَ منه الشاعر فهو محروم من (الضياء/ الرحيق/ الغرام) ولا شك أن وجود هذه التمنيات الماثلة في المحبوبة، متعلق بعدم وجود المحبوبة، فلو وجِدتْ المحبوبة لحُلّتْ مشاكله، ولكن عَجْزَ الأبيات يثبت أن الأمل لم يتحقق، (فابنة الأحلام) مجهولة الذات، وعادة في الطيف الزائر أن يكون معروفا، كما زار طيف سميرة البارودي، فطيف خيال الشرنوني ليس إلا وهما صنعه الخيال، (فالضياء) لم يُنَوِرْ أُفق ليله، (والغرام) تاه في دنياه، فكل أمنية من أمنياته أعقبتها حسرة، وتلك سمة الشاعر في جلِّ شعره، لا تعيش له فرحة حتى ولو كانت وهما، أو خيالا، أما عنوان القصيدة (قلب بلا حبٍّ) يوحي بأنه صاحب قلب حنون، لكنه لا يجد الحبيب، ،لذا لم يقل الشاعر (قلب لا يحب) رغم كثرة أزماته جراء العاطفة، مما يدل على شِدَّة تعلقه بالمرأة.

ومن أمثلة معايشة الطيف (الوهم) لتعويض فقدان الحبيبة، وآلام الوحدة، ما جاء في قصيدته (أحلام الصيف)، ومن خلال التأمل في سميائية العنوان يتضح لك أمران، أنها أحلام، أي من وهم خياله، ثم إنها كانت صيفا، وكأني بالشاعر ذهب إلى المصيف، فشاهد فتاة أُعجب بها، ولم يجروء على محادثتها - كعادته - فلم يجد

(١) الديوان، ص ٣٩٦.

إلا الأحلام يعيش من خلالها تجربةٍ لم تتحقق في الواقع، فأرداها وهْمًا، فقال[١]

وضحكنا .. واحتسى الكون رحيقا عبقريا
ورأتني شاعر النّظرة فارتاحت إليا
ومشينا فانتشى الرمل .. ويمّمنا النّديّا

واغتبقنا ساعة خمر الأحاديث العذابِ
ساعةً تعدل أحلامي وعمري ورغابي
وهي تُسْقِيني وأَسْقِيها.. شبابا بشباب
لا شِفاها بشفاهٍ أو رُضَابا برُضاب

أنتِ يا فاتنةَ الشطِّ أألقاكِ غدا؟
أم يصير الوعد جمرا بعد أن كان ندى؟
آه ما أقصاك إن ضَيَّعتِ أحلامي سُدى؟

فالشرنوبي صاغ قصيدته (أحلام الصيف) من وحي خياله، واتكأ فيها على المناجاة أحيانا، والحوار أحيانا أخرى، لما يحمله الحوار من أُنسٍ يخفف وحدته، والقصيدة وإن بدتْ حالمة رومانسية، يعيش معها القاريء جوا رومنسيا، مفعما بالرضا، والسعادة، إلا أنها تحمل في حقيقتها معاناة نفسٍ حُرِمت الحنان، اسمع إلى الشاعر يجسد هذه المعاناة في كثرة تكراره لضمير المخاطب (أنتِ)، وكأنما يتعلق بأمل فقد ارتبطت حياته بهذا الطيف، أو بهذه المخاطبة (أنت دنياي/ أنت حلم/أنت كأسي/ فاقبليني عابدا) ويتضح ذلك من قوله:

أنت دنياي التي أنشدها في خلوتي
أنت حلم سابح في مائج من صبواتي
أنت كأس الوحي في حانة أيام حياتي
فاقبليني عابدا.. أفْن هوًى في صلواتي

وتعدُّ القصيدة نموذجا يجمع بين التقليد والتجديد، حيث التزم الشاعر الوزن الشعري الخليلي، مع تنوع في القوافي، وعدد المقاطع، فهو يجعل المقطع الفردي (٩/٧/٥/٣/١) مكونا من خمسة أشطر، وقوافيه على هذا الشكل والترتيب (حاء

(١) الديوان ص ١٢٨.

مكسورة/ هاء مفتوحة/ ياء مشددة مردوفة بالألف/ جيم مفتوحة مردوفة بالألف/ دال مفتوحة مردوفة بالألف) بينما جاءت المقاطع الزوجية (٢/٤/٦/٨/١٠) مكونة من أربعة أشطر، وجاءت قوافيها على هذه الشاكلة (باء مفتوحة مردوفة بالألف/ دال ساكنة/باء مردوفة الياء المكسورة/نون مكسورة/ تاء مردوفة بالياء المكسورة) وقد واكب هذا التغيير في شكل القوافي تغيير في الأحداث يتوافق مع فرحته بالطيف حينا، وخوفه وتوجسه، وقلقه حينا آخر.

المبحث الرابع
رؤيته للحياة، والموت

الحديث عن الحياة، والموت سمة من سمات شعر الرومانسيين، فالموت بالنسبة للرومانسي لا يُعدُّ مصدرا للخوف، بل انعتاقا من الحياة وبؤسها، خاصة في اللحظات التي تشتد فيها الأزمات النفسية، ما بين المرء من جهة، وأحلامه من جهة أخرى، فعندما يشعر الشاعر أن مرارة العيش تُؤرقه، يتمنى الموت كحلم يُخْرخه من كل القيود والأزمات التي تواجهه بها الحياة "ولم يكن حبُّ الرومانسيين للموت، وتغنيهم به في أشعارهم ضعفا يسوقه الخوف من خوض غمار الحياة، بل كان فيضا من الحيوية التي تدفع أصحابها إلى الانطلاق إلى عالم مثالي، لا يلبثون معه أن يكرهوا ما حولهم من عالم الناس، ويضيقون به، فيرون أن الحياة كما يفهمها غيرهم لا تساوي شيئا، فينزعون إلى طلب الراحة"[(١)].

ولم يكن الشرنوبي بدعا من الرومانسيين، فهو مثلهم يُمجد الموت هياما، وافتتانا، ويراه مُخلِصا له من القيود، والأزمات التي تكالبت عليه؛ ولذا فالمتأمل شعر الشرنوبي يلحظ كثرة حديثه عن الموت ماثلا في ألفاظه، وصوره، وتراكيبه، فكثيرا ما تعرض في شعره إلى الحديث عن ثنائية الموت، والحياة، فما أصابه من قلق، وتوتر، وصراع نفسبي، أفسد عليه حياته، وأكثر من معاناته، ولم تُرِه الحياة إلا الجانب المظلم منها، فمال إلى الشكوى والتشاؤم، وجره هذا إلى الاغتراب الروحي، والزماني، والمكاني وإن لم يغادر الوطن (مصر)، فكان طبيعيا أن تزداد نظرته، وتطلعاته، إلى الموت، ؛ طالما كره الحياة، والأحياء، حتى غدا فراق الحياة، أحبَّ إليه من البقاء فيها.

وسوف يسوق البحث جانبا من نماذج تمنيه للموت، على أن هناك ظاهرة واضحة في تناول الشاعر لثنائية الموت والحياة، تعدت حدود التمني إلى إستشراف الموت، وتخيل حاله بعد الموت، والذي بثه في كثير من شعره، حتى وصل إلى ما يُعَدُّ من باب رثاء النفس، كما في مطولته(خمس وخسون عاما)، والبالغة تسعة وتسعين

(١) أدباء الرومانتيكية الفرنسية، محمد غلاب، مكتبة نهضة مصر القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٨١.

بيتا، ومن نماذج استشرافه للموت وتمنيه، ما جاء في قصيدته (بعد حين)، وفيها يقول:[1]

بعد حين ستوارني كما وارت سواي الحفـراتُ
بعدحين تُحْرم الدنيا أناشيدى وتفنى الأغنيات

بعد حين لست أدري أقريب أم بعيد؟
تنتهى أحلام دنياى ويبكينـي الوجـود
تُغَشِى سُحب الموت سمائي بعـد حـين

فالشاعر يستشرف الموت، وينتظر مقدمه، ولذا جاء تكرار كلمة (بعد حين) أربع مرات، منها ثلاث رأسيا، وواحدة أفقيا، ثم بالنظر إلى ما أضيف إليها (ستواريني الحفرات/تُحرم الدنيا أناشيدي/ لست أدري) وكلها تحمل دلالات الإنتهاء، ويقوي هذا المعنى ما تحمله كلمات (تنتهي أحلام دنياي / يبكين الوجود/تُغشى سُحب الموت سمائي) من دلالات على الموت، ويزداد الشاعر رغبة في انهاء الحياة، وكأن الحين قد حان، فيتخيل أنه مات، وفارق القطيع (البشر) كما سماه، أو الأصنام؛ولذا خاطب الشاعر مشيعه قائلا:[2]

أنـا مـاضٍ إلى السـراب.. فحيّـوا يـا ضـحايا الظَّـما شـهيد الفـلاة
أنـا مـاضٍ فـلا تخفُّـوا إلى قـبـر ي ولا تزْعجـوا سُـكون رُفـاتي
حطّمـوا مزهـري وذرُّوا بقايـا ه وصَـلُّوا في مـأتم الـذكريات
واسْـحقوا هـيْكلي وألقـوا إلى الـري ح حُطـامي..وبعـثروا أُغنيـاتي
واذْكـروا - إن ذكرتمـوني - ضـياعي وشُـرُدي وحـيرتي وشتـاتي
ودعـوني أنـم فقـد آن للعـا لم أن يسـتريح مـن صرخـاتي

فالشاعر يعيش مرحلة ما بعد الحياة، فيرى نفسه وقد مضى إلى الأخرة، وقد ذهب ظمأنا، فقد عاش حياة الوهم (السراب)، وهو حتى بعد وداع الدنيا، يضجر منها، ومن الأحياء؛ ولذا أستخدم من الألفاظ ما يوحي بضجره، حتى أنه يقطع علاقاته بالأحياء بعد الوفاة، لأنه ما ذهب إلى الموت إلا راحة من الأحياء؛ وليكون

(١) الديوان ص٢٤٦.
(٢) السابق ص ٤١٧.

الموت درعا يحميه منهم، ؛ لذا اختار ألفاظا تدل على ذلك (دعوني أنم/ لا تخفوا إلى قبري/لا تزعجوا سكون رفاتي)، حتى ما تبقى منه يريد له الخلاص فلا يحتك بالبشر(حطموا مزهري/ ذروا بقاياه/ اسحقوا هيكلي/ ألقوا إلى الريح حطامي/ بعثروا إغنياتي) كلها ألفاظ تحمل معنى الخلاص من الأحياء بحيث لا يكون له علاقة بهم حيًّا، أو ميتا. وفي مطولته (خمسون وعشرون عاما) التي أنشأها في ذكري ميلاده الخامس والعشرين (الميلاد ٢٦ مايو ١٩٢٤م/ تاريخ الإنشاء ٢٦ مايو ١٩٤٩م/ الوفاة ١٧/ ستمبر ١٩٥١م) ويحتفل الشاعر بميلاده بطريقة تختلف عن البشر، إنه يرثي نفسه، ويستثقل طول عمره، ويرجو الخلاص من الدنيا، ويتخيل الممات، بل يعايشه فيقول في مطلعها[١]

خمـــــس وعشـــــرون عـــــاما ... مـــــرَّت ســـــحابا ســـــخاما
فمـــــا زرعـــــنا صـــــفاء ... ولا حصـــــــدنا ســـــــلاما
ومـــــا زرعـــــنا ســـــوى اليـــــأ ... س ناضـــــــــرا بسامـــــــــا

فمطلع القصيدة يوقفك على مأساته، ونظرته إلى الحياة، فقد ملَّ ابن الخامسة والعشرين الحياة، وكأنه بلغ من العمر ما أحوج سمعه إلى ترجمان، ولعل الشطر الثاني من البيت الأول يجيب عن التساؤل الذي يدور في خلد المتلقي ما السبب؟ فتأتي الإجابة (مرت سحابا جهاما)، أي مظلمة كئيبة، ومع ذلك فهي غير ممطره، مما يعني أنها لا يُترجى منها الخير، كحياته دون أمل تحقق، أو حتى يرجو تحقيقه؛ ولذا جاء البيت الثاني (فما زرعنا صفاء، ولا حصدنا سلاما)، أنها أرض لا يُزْرعَ فيها إلا اليأس، وكأني به يريد أن يقول أن حياته مع هؤلاء لا صفاء فيها ولا سلام، بل أحقاد وأضغان، ويطلب الشاعر مِن رفاقه سرعة تكفينه وتشيعه، وألا يسرفوا في ذمه، إنه لا يأمن منهم حتى بعد موته؛ولذا لايطلب غير سرعة دفنه، ، وأن يترحموا عليه، وليحطموا الأقلام، ويزرعوا الريحان بجوار قبره فيقول:[٢]

يـــــا رفـــــاق حيـــــاتي ... وصفـــــــوتي والنّـــــــدامى
دنـــــا الرحيـــــل.. فـــــلا تقـــــ ... ـــــطعوا لعهـــــدي زمامـــــا

(١) الديوان، ص٤٦١.
(٢) السابق، ص ٤٦٤. الخُزامى: عشبة طويلة العيدان، طيبة الريح، فيها لون كنور البنفسج، وليس في الزهر أطيب منها ريحا.

وإن جزعـــت فـــلا تُســـ رفـــوا عـــليّ ملامـــا
وإن مضـــيت فـــلا تـــذ رفـــوا الـــدموع السّـــجاما
خفـــوا إلى حمـــل نعشي وألبـــسوني القتامـــا
وتوّجـــو بالأقاحـــي جبـــانتي...والخـــزامى
واســـتغفروا لي فـــيا طـالمـــا اقترفـــت الآثامـــا

ويتعايش الشاعر مع رثاء النفس، فيتخيل أنه دفن، ومرَّ عليه زمن، وها همْ صحبه جاءوا الى قبره لزيارته، وتخيل معي كيف قابل من جاءوا له زائرين، إنه لن يرد سلاما، فلا يظنوا به الظنون، فهو يرى أن صمته كلام، وموته بداية حياته فيقول:

فـــإن مـــررتم بقـــبري مســـلِّمين لمامـــا
فلـــم أحـــي صـــديقا ولم أردُّ سـلامـــا
فـــلا تقولـــوا طـــواه الـــ ـــبلى رحيقـــا وجامـــا
فربمـــا كـــان مـــوتي بعثـــا وصـــمتي كلامـــا

إن نظرته اليائسة من الحياة، جعلته يتمنى الموت، ويتلذذ به، ويعيش بين الأحياء، وروحه بين الأموات فيقول في ذات القصيدة:

ســـئمتُ حتـــى التمنـــي! والـــدَّمع والابتســـاما
والأرض والسّـــاكنيها والأُفـــق.. والأجرامـــا
ومـــا أريـــد حـــلالا مـــن المنـــى.. أو حرامـــا
حسْـــبي وفـــوق مـــرادي ألا أُطيـــل المقامـــا
وأن أرى لحيـــاتي نـــهاية ... وختـــاما

وكأني بالشاعر سُئل كيف يحتفل بميلاده بهذه الطريقة، فأجاب أن حياته كانت تعيسة ملأتها الحيرة، وضبابية الفكر، والشك، وحياة بهذا الشكل لا يُحْتفى بها فقال في قصيدته (حياتي):[1]

أتى فلـــم يفـــرح بمـــيلاده إلا نـــديماه الأسى والفكـــرُ

(١) الديوان، ص ٤٦٦.ك

حـــيران لا يعـــرف عـــن نفســـه إلا كـــما يعـــرف هـــذا الحجـــر
يـــبكي بـــلا دمـــعٍ وفي قلبـــه مـــا يُغْـــرِق الـــدنيا إذا مـــا انفجـــر

ومن نماذج إلحاح الشاعر على تمني الموت قوله:[١]

يـــاربِّ هـــذه الـــدار مـــلَّ نزيلهـــا فســـلامُها ألاَّ يـــدوم ســـلامُها

ويخاطب صاحب القدرة (من أمره بين الكاف والنون)، أن يريح طائر السجن من شقائه، فلا يعيش طويلا، وأنه اكتفى بهذا القدر من العمر (ولو شاء مطلقه قيده) فيقول:[٢]

يـــا أيـــها الفـــرد في قدرتـــه يـــدبِّر أمـــري كمـــا يشـــتهي
أرحْ طـــائرَ الســـجن مـــن شـــقوته فلـــن تنتهـــي قبـــل أن تنتهـــي
أرى العمـــر يوغـــل في خطـــوه ولـــو شـــاء مطلقـــه قيـــده
لعـــلَّ الـــذي فـــات مـــن صـــفوه يـــردُّ إليـــه الـــذي أفقـــده

فهو يرى أن سبيل الوصول إلى السعادة كامن في انتهاء طريق المعاناة (الحياة)، ولن ينتهي الطريق إلا بإنتهاء الحياة فهو يقصد (بتنتهي الأولى)، الشقاء، (وبتنتهي الثانية) الحياة؛ولذا فهو يريد انتهاء الحياة لتنتهي عذاباته، فالشرنوبي يرى أن قطار العمر امتد به، وأن طريقه طال، ولم يجد فيه غير الحيرة، والغربة، ؛ لذا أنشأ قصيدته (طال الطريق) وفيها يقول[٣]:

طـال الطريـق فمـن يقـول لسـادر حـيران حسـبك قـد بلغـت منـاك
وطرقـت أرضـا ضـاع عمـرك كلـه مـن دونهـا..... وتمزقـت قـدماك
....
وطـوى عُبـاب الـدهر مـا أممـلّته يـا ليتـه لمـا طـواه طـواك

فالشاعر يجسد في القصيدة، خيبة أمله في هذه الحياة، ويرى أن البقاء فيها بلا أمل عذابا له، لذا يتمنى أن يطويه الدهر، كما طوى وبدد أمانيه (ياليته لما طواه طواك).

(١) الديوان، ص ٣٧٥.
(٢) الديوان، ص١٦٩.
(٣) السابق، ص ٤٨٥.

وفي قصيدته (الجنة الحمراء) يجسد الشاعر رؤيته للحياة والموت، وتبدأ هذه الرؤية من بداية اختيار العنوان حيث لم تأت المفارقة دون قصد فهو يرى أن الجنة الخضراء خاصة بالسعداء الذين تحقق لهم الدنيا أمانيهم، فالدنيا بالنسبة لهم جنه، أما دنيته هو فهى حمراء قانية لباسه فيها العذاب، وهو فيها مشرد لا يدري كيف بدأ، ومتى ينتهي، عاف الدنيا وسأمها، لايريد منها إلا أن تتركه يرحل (لا عليًا، ولا ليًا)، فقنوطه من الدنيا بادٍ في جلِّ ألفاظه (سئمت نداءها/ أكرشها/ دعيني)، وأكرشها هنا بمعنى أدفعها بعيدا عني كراهية فيها، ويصف الشاعر هذا الموقف من الدنيا في قوله:[1]

حياتي طريق لست أدري انتهاءه ... وقبلا جهِلْت البدء منذ ابتدائيا
وموتي بيد يعزف الغيبُ فوقها ... مزاميرُ أشباحٍ تهز ا لدَّياجيا
فمالي وللدنيا سئمتُ نداءها ... أكرّشها إمَّا استجابت ندائيا
دعيني لأبْقَى الخالدين يضمني ... لأخرج منكِ لا علي ولا ليا

ومن خلال هذه النظرة الكارهة للدنيا، والمتمنية للأخرة، بدافع الخلاص من دنياه المريرة، يقول في قصيدته (سراب)،[2]

أيُّها النّاسُ لقد نَفَّ (م) ضْتُ من عمري يدي
وهفتْ رُوحي إلى رؤْ ية ما يطوي غَدي
آه لو أستطيع أن أعْ رف كُنْه الأبد
آه لو أدري مصير الرّوُ ح بعد الجسد
أهو بعثٌ رُ هِنتْ سا عته بالموعد
أم هوالوهم يريني الـ ـقرب كالمستبعد
آه لو أني ما عمّ رت أو لم أولد

انظر إلى كثرة آهات الشاعر وتكرارها في مطلع الأبيات، وما تدل عليه من نفس معذبة، تتمنى لو عُجِّل لها بالموت، أو أنها لم تولد. ويتأمل شاعرنا الحياة،

(١) الديوان ص ٣١١.المقصود بأكرشها أدفعها، وفي مادة كرش: قطب وجهه، وكلاهما يفيد المعنى.والمقصود بأبقى الخالدين: الآخرة فهي الباقية.
(٢) الديوان ص ١٨٠

ويتساءل عن قيمة الحياة، وقد خلت من الحب، ومن تحقيق أيٍ من الأماني، يتساءل عن سرّ الوجود، ولمَ كان البدء والختام؟ إن كثرة تساؤلات الشاعر في مثل قوله (ألمحض الوجود والموت جئنا، أم لسرٍّ، وحكمةٍ مكنونة، من أكون، ما كنت، وما يدعو وجودي/ متى تكون النهاية، ما وراء الحياة، ما غاية الدهر، ماذا كان قبل البدء؟) كل هذه التساؤلات تدل على نفس مزقها التشويش الفكري ما بين مذاهب فلسفية، ونوبات صوفية، مما جعلها نفسا غير مطمئنة في حياتها، فالطبيعي بالنسبة لمثل هذه الحياة أن تزهد الدنيا ليس زهد عبادة بل نقمة، وتجسد الأبيات التالية هذه الرؤية حيث يقول(١)

ألمحـض الوجـود والمـوت جئْنـا ... أم لسرٍّ وحـكمةٍ مكنونـةٍ؟
ليـت مَـنْ في السـماء يـرحم شـكي ... فيـريني ضيـاءه أو يقيـنه
من أنا؟ من أكـون؟ مـا كنـت؟ مابـد ... ءِ وجـودي؟ متـى تكـون النهايـة؟
مـا وراء الحيـاة؟.. مـا غايـة الدّهـ ... ـر ومـا كـان قبـل بـدأ الروايـة؟

إن نفسا لا تعي رسالتها في الحياة، ولا تدرك إلا أنها خُلقتْ لتموت، نفس ضعيفة تنهار مع أولى صدمات الحياة، فما بالنا بنفس ذاقت ويلات الحياة، لا شك أن رؤيتها للحياة لن تكون سوية، بل كارهة للحياة، ترغب الموت، و تبحث عنه، وربما ذهبت هي إليه طواعية.

(١) الديوان ص ٤١٣.

الفصل الثاني
الإنسان الآخر، ومظاهر التفاعل معه

المبحث الأول
مشاركة الآخر قضاياه الاجتماعية

للشعر غاياته الإنسانية التي يوظفها الشاعر في خدمة مجتمعه، فمن الخطأ التصور بأن الشاعر الرومانسي ذاتي النزعة، لا يعبر إلا عن تجارب فردية ذاتية، أو يعيش في برج عاج في معزلٍ عن مجتمعه ومشاكله؛ لأن الشاعر الصادق لا ينفصل عن بيئته، وكيف ينفصل عن بيئة يمثل جزءا من أجزائها، كما أنه يقع في دائرتها تأثرا، وتأثيرا، فهو لا يغرد خارج سربه، فلا يمكن فصل الشاعر عن بيئته؛ لأن الشعر " يُعدُّ من أسمى الفنون، حيث يحقق للإنسان كثيرا من القيم النفسية، والأخلاقية، ويُرَقِّي ملكاته الروحية"[(١)]

فالشعر الذي يؤمن بقيمه الإنسانية لا ينقطع عن مشاركة مجتمعه، فيتفاعل مع كل ما يجري في مجتمعه، ولا ينفصل عن قضاياه ومشاكله، وعليه الإحساس بوطأة الوضع الاجتماعي الذي يعيشه المجتمع، وعدم الشعور بلا مبالاة، ومن هنا كان الشرنوبي يشعر بأن عليه واجب إنقاذ البشر، وكل من يعانون معاناته.[(٢)]

فالشرنوبي يؤمن بأن الشعر رسالة سامية منبعها السماء، ويجب ألا تحمل غير الطهر، والعفاف، والخير للمجتمع، وألا يكون فيها دنس، ولا عبث، أو ليس القائل في قصيدته (نجوى)؟[(٣)]

ياربــة الشــعر هــذا الشـــعر أنهلــه	من منبع في سمائي الحب روحاني
مــا شــابه دنــس الــدنيا ولا عبــثَ	بصفـــوه غـــير أنـــاتي وأ شجـــاني

ويري العقاد أن أبرز ما يميز مذهبه الشعري نزعته الإنسانية " لأنه من

(١) الفنان والإنسان، زكريا عرفه، مكتبة غريب القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٣٣.
(٢) راجع ثورة على الفكر العربي المعاصر، محي الدين أحمد، المكتبة العصرية بيروت، د.ت، ص ٥٨.
(٣) الديوان، ص ١٢٢.

ناحية يعبر عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة، ولأنه من ناحية أخرى ثمرة القرائح الإنسانية عامة، ومظهر الوجود المشترك بين النفوس قاطبة"[١]

والممعن في شعر الشرنوبي يجد أنه عبر من خلال شعره عن العديد من القضايا الاجتماعية التي شغلت مجتمعه، والتقطت عدسته كثيرا من مظاهر السلوكيات الاجتماعية، خاصة السلبية منها، ولم يقف مكتوف الأيدي إزاء ما رأه من سلبيات، بل حاول كشفها، وتغييرها بكل ما يملك، فانتقد، ودافع، وعايش الأحداث سلبية كانت أو إيجابية، وهذه المعايشة الصادقة من الشاعر صهرت تجربته الشعرية، وجعلتها تجربة إنسانية، فشكلتْ إنسانيته الذاتية، والمجتمعية على حدٍ سواء، وقد انعكست تجربته الذاتية على تجربته الجمعية، فاتشحت بوشاح أسود ظهر جليّا في الفصل الأول (الإنسان الذات)، وفي هذا الفصل سنقف مع تجربته مع الإنسان الأخر من خلال عرض الجوانب الإنسانية التي نتجت عن احتكاكه مع الآخر سلبا، وإيجابا.

إن شخصية الشرنوبي المتوترة القلقة ناجمة عن شدة تأثره بما في مجتمعه من سلبيات، فقد دفعته نفسيته التي تعشق الحزن إلى الوقوف عند كل مشهد مؤلم، فلا يمرُّ عليه مرور غيره، بل يرصده، ويتأمله، ويتعايش معه إلى حدِّ التأثر، فتوتر علاقاته جعله يشعر بالاغتراب الروحي، والزماني، مع ذلك ظل لقومه رصيد من الحبِّ جعله يراهم كما وصفهم في قصيدته (قومي) زينة الدنيا حيث يقول:[٢]

قـومي وهـم زينـة الـدنيا وبهجتهـا ... وفي سـمائي المعـالي نجمهـا العـالي

إنه يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم وإن جافوه، وضحكوا على أتراحه، وأبكتهم فرحته، فيقول في قصيدته (الأصداف)[٣]

أنـا للنـاس قـد خلقـت فـما أر ... ى جـوا لنفـسي إلا الـذي يفضـلونا

ولقـد أسـكبُ الـدموعَ لبلـوا ... هـم، وهـم في منـاحاتي

(١) مقدمة الديوان في الأدب والنقد، الأستاذ محمود عباس العقاد، الطبعة الثانية القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٢٥.
(٢) الديوان، ص ٥٤٠.
(٣) السابق، ص ٣٥٩.

ربمّـــا فـــوْقَوا الســـهامَ لقـــتلي فـرأوْنـــي أبـــارك القـاتـلينـــا
غـــــير أنيِّ أُحبـــــهم وأُرجّـــــي لـــهم الخيـــر والهـــدى واليقـيـــنا
وأراهـــــم كأنـــــهم في وجـــــودي خطـــرات تأبـــى عـــلي السكونـــا

فالشاعر يحمل صورة مفارقة لما يحمله لقومه، وما يحملونه، وهذه الصورة تكشف بجلاء أن الشاعر لم يكن ميالا إلى الإغتراب بل دفعه قومه، وظروفه إليه دفعا، فهو يعفو، ويغفر، ويتجاوز عن الهنات، في الوقت الذي لا يجد إلا سهام قومه موجهة إليه نقدا، وتجريحا، وأحيانا سخرية، ومن عايش المعاناة لم يكن ليصمت على معاناة الأخرين، خاصة إذا كانت معانتهم تتشابه مع معاناته، هنا يختلط الإنسان الذات، مع الآخر، فتخرج التجربة إنسانية صادقة في المعايشة، والانفعالات، فهذا الشرنوبي وقد وقعت عينه على طفلة بائسة مشردة تبيع أوراق الياناصيب في الشوارع حافية القدمين، فيشاركها المعاناة، وينشىء قصيدته (ابن الطريق) ويكتب تحتها إهداء إلي الطفولة المشردة (" إلى كل طفولة مشردة تبيع أوراق الياناصيب أُهدي هذه القصيدة ") والحق أن القصيدة جاءت لتمثل وقفة إنسانية باكية دامعة، حتى إنه ليعجزك بأي أبياتها تستدل، فها هو مطلعها الباكي الحزين يدل على إنسانية مرهفة فيقول:[1]

ألقـتْ عليـك الليـالي ثوبهـا البـالي وضِـعْتَ مـا بـين تجـوالٍ وتسْـألِ
أيامـك السـود عقـد ضـلَّ ناظمـه وجيـدُ عمْـرك مذبـوحٌ كأمـالي
ويحـي عليـك هشـيما ضـمه كفـن ودُرة غُيِّبـتْ في قـبر أوحـالي
ويْحي عليك و ويحي منك ما وهنتْ مـن نـار بلـواك أصـلابي أوصـالي
أنـا الـذي ضـاقت الـدنيا بفرحتـه ولم تضـق بجراحـاتي وإعـوالي

فالشاعر يرسم من خلال هذا المشهد لوحة تعبيرية أخاذة في تأثيرها، ومردودها الإنساني، فقد شبه الدنيا بإنسان ألقى بثيابه البالية على جسد هذا الطفل ليواري سوءته، وانظر إلى روعة التصوير في قوله:

ويحـي عليـك هشـيما ضـمه كفـن ودرة غُيبـتْ في قـبر أوصـالي

(١) الديوان ص ١٦٣.

فقد شبه الطفل الذي ضاعت طفولته، وصيحاته في الطريق بإنسان فقد الحياة، ولم يجد ما يستره إلا كفنا يضمه، كما وصفه بأنه درة غالية لم يعرف المجتمع قيمتها، ولا حقها، ولا ما يجب أن تكون عليه فألقى بها في أوحالٍ عفنةٍ، وقد وفق الشاعر في استخدام الفعل المبني للمجهول (غُيِبْتَ) للدلالة على أن المجتمع هو الذي ظلمه، وأنه لم يرتكب خطأ يعاقب عليه، ويختار الشاعر من الألفاظ ما يدل على عِظم المأساة، وأثرها على نفسه، ولعل هذا الألم البادي على الطفل، انعكس على الكلمات فبدت هي الأخرى حزينة، وقد حرك هذا الحزن آلام الشاعر التي لا تفارقه، فلم يجد لمأساة الطفل نظيرا يضاهها إلا مأساته الشخصية فقال (وجيد عمرك مذبوح كأمالي) و (من نار بلواك أصلابي وأوصالي)، ويظل الشاعر في نظم قصيدته على شاكلة المخمسات، جاعلا لكل خماسية قافية خاصة، ويصور الشرنوبي أثر رؤيته لهذا الطفل، وتأثيرها على قلبه ومشاعره فيقول:

رآك فاهتـــز خفَّـــاقا بأضـــلعه ... ورتلـــتْ شـــفتاه صـــورة الألم
وأجْهـش النَّـاى في كفيـه مرتعشـا ... ولم يُـرَوِّ البكـا مـا فيـه مـن ضرم
والليـلُ ليلـك يـا ابـن الليـلِ أخيلتـةً ... وقســمة ولشــعري دامــع الكلــم

ودموع الشاعر التي ذرفها حزنا، وألما، لم تطفىء نار قلبه، فهو يرى أن دموعه وإن أشعرت الطفل بأن هناك من يتعاطف معه، ويأسى لجراحه، إلا أنها بالنسبة للشاعر غير كافية؛ لانها لن تفيد الطفل، بل لعلها جرحت مشاعره. وانظر إلى إنسانية الشرنوبي وهي تجسد هذه اللوحة المؤثرة في وشيٍ من جمال اللفظ والتعبير فيقول:[١]

تكفيـك منـي دموعـا لـيس تكفينـي ... والــدمعُ ينقــعُ أكبــاد المســاكينِ
أبكبـك طفـل الأمـاني قـام هيكلـه ... عـلى عـمادٍ كـذاوي الزهـر موْهـون
أبكيــك دون ودادْ غــير أن دمــي ... تعيــثُ فيــه المنايــا عيــث مجنــون
وأنت يا ايها القاضي الـذي عصـفتْ ... أحكامــه بضــحايا المــاء والطــين
رحـماك إن الضـحايا غـاب كـوكبهم ... وحرَّمـوا سـمعهم عـذاب الأرانـين *

فانظر إلى الحسِّ الفني للشاعر في اختيار كلماته، وتوظيف مدلولاتها

(١) الديوان، ص ١٦٤. والأرانين: جمع الإرنان: وهو صوت الشهيق عند البكاء.

(أبكيك طفل الأماني/ الدمع ينقع أكباد/عصفت/تعيث/ غاب كوكبهم) تشعر بأنين الكلمات وكأنها آهات مكلوم نزف قلبه، وانظر إلى روعة استخدام الصور الفنية في مثل (طفل قام هيكله على عماد كزاوي الزهر مرْهون)، (تعيث فيه المنايا عيث مجنون)، (عصفت أحكامه)، (غاب كوكبهم)حيث حرص الكاتب على توشية صورته رغم كآبتها بمزيد من التشبهات، والاستعارات التي وظفت للتأثير على مشاعر المتلقي، فيرق لهذه الطفولة المعذبة، فقد شبه هيكل الطفل، وهزاله بعود زهر زوى، أو ذبل، وقد وفق الشاعر في اختيار عود الزهر تشبيها للغلام؛لانه ما زال في مقتبل العمر لكنه هزيل الجسم لعدم الاعتناء به، كزرع أُهمل فزوى عوده، ويبس كما صار هذا الطفل هيكلا، جف وأُسند على عماد، وإلا ذرته الريح، كما شبه فوران الدم في عروقه من شدة غيظه على الطفل وحاله وكثرة ما ينتابه من أمراض نقص التغذية، بالمجنون الذي يسير على غير هدي وبطريقة لا يمكن التحكم فيها، أما في (عصفت أحكامه)، فقد شبه ظلم حكم الراعي المسؤل عن الطفل بالريح الشديد العاتي الذي اقتلع هذا الطفل من الحياة، كما يذر الريحُ الرمالَ، كما شبه الضحايا المعذبين بالنجم الذي أفِلَ، وقد كنى عن مدي الظلم، والتضيق عليهم بأنهم لم يعد لديهم القدرة على إحداث صوت عند البكاء (وحرَّموا سمعهم عذاب الأرانين)، وما عليهم إلا كظم البكاء، وعدم الشكوى.

ومن أمثلة مشاركة الشاعر غيره، وإحساسه بمعاناة الأخرين ما جاء في قصيدته (المجنون)، حيث يصف الشاعر معاناة مَنْ يَطلق عليهم الناس(المجانين)، وكيفية تعرضهم للإيذاء النفسي والبدني، وتقطيع كل الأواصر بدلا من مدِّ يد العون لهم، وكأني بالشاعر يصف تجربته الشخصية، فقد عرفنا من خلال التعريف به كيف أنه إتُهِم بالجنون، وأُدخل عنوة المصحة النفسية عدة مرات، لذا فنفثته هذه ذاتية اجتماعية في آنٍ واحدٍ، فهو يشاطر فيها مجنونا، وفي ذات الوقت يعبر عن مشاعر انتابته حين تعرض لهذه المأساة، ويصف الشاعر حال هذا (المجنون) في كلمات كتبها أسفل عنوان القصيدة قال فيها " رأيته يمشي مهلهل الثياب، ملتاث الخطى، وفي كفه قارعة من حديد يقرع بها نفسه، والأطفال يحصبون رأسه صائحين: (المجنون)، وهو يرسل بصره إلى السماء صائحا عطشان...عطشان"، ولا شك أن رؤية الشاعر لهذا المشهد الإنساني حرك إنسانيته، واستعاد شريط ذكرياته

المؤلمة، فانطلق لسانه فأنشأ يقول:[١]

نسميه مجنونا فنحصب رأسه ... وفي رأسه ثارت عواصف من عقل
تنوح فتصْليه لظى من نواحيها ... فيشرد ملتاث الخطى كبني النمل
يخالُ سرابا سائلا من سمائه ... وما في سماء الأرض شيء سوى
وينظر أرض الناس وهي جديبة ... فيحسب أرض الناس وبلا من
فيهذي بألحان تمزق شملها ... وليس لها في آخر العمر من وصل
فيا ليت هذي الناسَ جنَّ جنونهم ... فكانوا عن الرقطاء والسّم في شغل
وذاقوا طعام الساخرين بعيشهم ... فغضُّوا عن الأضواء ضائقة القفل

فالشاعر يصف الصراع النفسي الذي يعانيه المجنون في تعامله مع مجتمعه، وكيف أنه يحمل في رأسه أفكارا ورؤى ربما لم يصل إليها فكرهم، إنها أفكارٌ تصرخ أو (تنوح) في عقله، فيشرد بفكره، وتتثاقل قدماه، وكأنما تسير سير النمل في تعثره، واختار للتعبير عن بطىء الخطا بلفظ (تلتاث) لما تحمله من تعثر كأنما يلتف حول نفسه، كما جاء في اختيار الشاعر لكلمات (تنوح، ثارت عواصف)، أما عن النواح؛ فالدلالة علي أثرها الحزين على نفسه؛ لأن النواح لون من البكاء الشديد، لذا قرنه بلفظ (تُصليه لظى)، أما عن (ثارت عواصف)؛ لأن هذه العواصف (الأفكار) ربما في درجة لم يتقبلها المجتمع، فكان الإتهام شديدا، إنه ينتظر من الناس خيرا، فلا يجد إلا الشرَّ (ما في سماء الأرض شيء سوى المحل) فالمحل انقطاع المطر، دلالة على عدم الخير المرجو، كما قد يعني البعد أو الشدة، وهي تجمع على محول وأمحال، وكلا المعنيين يصلح في تفسير المعنى المراد، فلا خير يرجى من مجتمعه، وفيهم شدة وغلظة؛ ولذا فلا عجب أن يقول:

فيا ليت هذي الناس جُنَّ جنونهم ... فكانوا عن الرَّقطاء والسُّم في شغل

فالشاعر وصف هذا المجتمع، ومدى ما يحدثه من أثر نفسي بالحية شديدة السّمُّ؛ لذا دعا عليهم بأن يصابوا بما يشغلهم، حتى يأمن الناس سُمهم، فالأبيات تجسد حالة الصراع الذي يتعرض له من كان على شاكلته؛ لذا لايجد من كان هذا حاله، وهذا مجتمعه إلا تأمل السماء متعجبا ما يقع له دون جريمة ارتكبها،

(١) الديوان ص١١٢.

فالشاعر بوصفه السارد للقصة التي رأها، أو عايشها يتداخل صوته مع صوت الضحية، فيلقي باللائمة على قومه، ويصفهم بالجهالة، وضيق الأفق، ويلاحظ على الأبيات تكاثر الأفعال، وتواليها، وتنوعها ما بين ماض، ومضارع بما يعني أن الشاعر أراد تجسيد الحدث، والزمن لما تحمله دلالات الفعل على حدث وزمن، وهذه الدلالات تكسب القصيدة حيوية وحركة ماثلة في كل أركانها، على أن الأغلبية فيها للمضارغة، مما يعني أستمرار هذه الصورة وتكررها، والأفعال المضارعة جاءت في مثل (نسميه/ نحصب/يشرد/يخال/ينظر/يحسب/يهذي/تنوح/ تصليه/تمزق /تغلي) وكلها ألفاظ تحمل في معانيها معاني الألم، وقد جسدته مباشرة بلا قرين (تنوح/ تغلي/ تصليه/تمزق/ تغلي).

ومن نماذج مشاركة الشاعر مجتمعه تألمه لما أصاب أهل الصعيد من مرض (الملاريا) التي أودت بحياة الكثير منهم، فأصيب المجتمع كله بفاجعة، وعبر الشرنوبي عن هلعه وحزنه، ومشاركته أهل الصعيد مصابهم، فأنشأ قصيدته (في مأتم الصعيد) يقول مطلعها:(١)

لهـف نفـسي والمنـايا تتلظـى ... مـا لجمـرات المنايـا مـن خلـود
صـهرتها وهـى كالغيـم نـدًى ... في لظـى الحسـرة أبنـاء الصـعيد
معشـرٍ كـانوا كأزهـار الـرُّبا ... رضـعوا في المهـد مـن أثـداءِ جُـود

والممعن في القصيدة يجدها تحمل مشاعر الأسى والحزن على ما أصاب أهل الصعيد، و قد بدأها الشاعر بالتحسر(لهف نفسي)ثم جاءت جُلُّ الألفاظ؛ لتشعرك(المنايا تتلظى، الجمرات، الغيم، الحسرة)، وكلها تحمل مشاركتهم الآلام، والمحنة، لذا أعلن الشاعر أنه يفتديهم بروحه فيقول:

أنـا إن لم أبـذل الـروح لكـم ... وأُفـدِّي بـطريفي وتليـدي
لارعـتْ مـصر لقلبـي أمـلا ... ورمـاني الـدهر بـالرزء الشـديد

والشرنوبي الذي عانى شظف العيش، وصارع في حجرة ضيقة فوق المقطم هجاها بقصيدة كاملة (الغرفة المهجورة) راعه أن يجد فتيات حباهن الله الجمال، ولكن الدنيا ضاقت عليهن بما رَحُبَتْ، فلبسنَّ لباس الجوع، والخوف من ذئاب

(١) الديوان، ص١٢٤.

بشرية، فلما اجتمع عليهن الجوع، والخوف ضاع الأمان، فأنشد الشاعر قصيدته(أحلام الكوخ) يُسْقِطُ من خلالها حاله على حال هذه الفتيات، ويقول مطلعها:(١)

هـــدم الليـــل مـــا بنـــاه النهـــار واســـتكانت للظلمـــة الأنـــوار

ففي مطلعٍ خبري مأساوي، في قصيدة بُدئت بالتصريح، يلقي الشاعر في نفس متلقيه صدمة تزلزل النفس، فقد انقلبت الدنيا، وكأنما نُفخ في الصور(هدم الليلُ ما بناه النهار)، وزاد حسن التقسيم المعنى قوة ورهبة إن مجرد قراءة الشطر الأول تُشعرك بأن كل شيء قد ضاع، وانظر إلى لفظ (هَدم) وما يوحيه من معنى الفناء، وتراكم المهدوم بعضُه يركم بعضه، حيث غالبا ما يكون الهدم في الأجسام الصلبة ذات الحجم والثقل، ثم قبل أن تفيق من الزلزال الأول، وخشية أن يتسرب إليك أمل في بناء ما تهدم يأتي الخبر الآخر(واستكانت للظلمة الأنوار) فانهدم حتى الأمل، ولعل القراءة الثانية للأبيات، أو ما خلف السطور يقول إنه قصد بالنهار العدل، والحق، والحرية، وأن الظلم القابع في المجتمع أضاع الثالوث (العدل، والحق، والحرية) كل هذه المعاني القوية الضخمة انتابت الشاعر من هول ما رأى من شأن جوع الفتيات، وحاجتهن إلى الأمن والأمان، وقد استخدم الشاعر صورة اللون لتجسيم الأثر حيث دلَّ الليل على الظلام، والنهار على النور، ومع ذلك كرر في الشطر الثاني عنصر التصوير(الظلمة، والأنوار)، واستخدم فعل الماضي؛ ليقطع كل أمل يرجى (هدم، استكانت).

ويعقد الشاعر للدلالة على سيطرة الليل على النهار موازنة تبين حال الفقراء في مقطوعة خماسية، قافيتها الباء المضمومة، واختار الباء التي تعني إطباق الشفتين، وأضاف الضم؛ لتُمَطُّ الشفاة أطول وقت؛ مما يدل على حال الفقير الكاظم على ضيقه لا يستطيع التنفس أو التنفيس عن حاله، و يصور ذلك قوله:(٢)

وتـــداعت في الخـــافقين قلـــوب حـين طـارت في الخـافقين قلـوبُ
عـالـــم جـــامحٌ وحـــظٌّ مُشِـــتٌ (م) ت وصراعٌ يشـــيبُ منـــه المشـــيبُ

(١) الديوان ص ٢٩٢.
(٢) السابق ص ٢٩٣.

فهنـــا قلـــبُ عابـــد الخبـــز والمـــا ... ءِ جـــــراحُ أحـــــلامه ونُـــــدوبُ
يتنـــزَّى دمـــا فـــلا يجـــد الدمـــ ... ـــعَ و يُعَـــزِّي بـــه الغريـــبَ الغريـــبُ
فـــإذا اشـــتاق مـــا يعَـــافُ ســـواه ... فالريـــاض المنضـــراتِ جُـــدوبُ

فالشاعر يصور واقع الفقراء، ففي البيت الأول ومن خلال تغيير كلمة واحدة (تداعت بدلا من طارت) وضع المتلقي في الموازنة مباشرة، فقلوب تداعت، وقلوب طارت، قلوب تداعت من الحزن، وأخرى طارت فرحا، حيث العالم (جامح)، ولفظ جامح يدل على السرعة، وعدم تحديد الاتجاه، وجاء ما بعدها ليؤكد (مُشِتٌّ الحظ)أي متفرق لا عدالة فيه، ولعل بدء البيت الثالث يدلك على مدى ما وصل إليه الناس من فقر حتى صار منهم من يعبد رغيف الخبز، أما البيت الرابع فيوحي بالفرقة بين المجتمع حيث الأخ لا يشعر بما يعانيه أخوه من فقر، مع أن الغريب يتعاطف مع الغريب ولو بالدموع (والدمع به يعزي الغريب الغريب)، إن سوء حظ الفقير يجعل الطبيعة لا تتعاطف معه، فإذا مدت يده إلى زهرة ناضرة تحولت الحديقة الفيحاء إلى صحراء جرداء، ويعقد موازنة بين الفقير الضعيف، والغني ليظهر الفوارق الطبقية، وعدم تحقق العدالة الاجتماعية فيقول:

وهنـــــاك المعـــــربد النشـــــوان ... قـــد تـــولى تربيتـــه الشـــيطانُ
وليـــده الحيـــاة كـــأس وحـــورا ... ء وبحـــــر أمـــــواجه ألحـــــان

فالشاعر يعقد موازنة بين فئتين يعيشان في مجتمع واحد أحدهما يعبد الخبز من شدة حاجته إليه، والأخر نشوان يعربد في الحياة، وانظر الى قوله: (تولى تربيته الشيطان) إن هذا المعربد المنعم لم ينل النعيم بجده، ولا اجتهاده، بل بطرق شيطانية، ولعل الشاعر لجأ إلى هذه المفارقة؛ ليجسد كيف يعيش المجتمع في طبقية مميتة لا عدل فيها، ولما كانت قصيدته (الكوخ والقصر) رمزا لهاتين الطبقتين، كان لزاما عليه أن يعقد الموارنة بين الرمزين من حيث المظهر والجوهر، المظهر يثبت أن هذا فقير، والأخر غني، و الناس تُعجب بالغني، ويبهرها غناه، أما الجوهر فالحياة تثبت أن الفقير قد يكون له تأثير في الحياة يبقى، فيشعر الناس بالحاجة إليه، بينما الأخر إذا رحل زاد الطين في الأرض إثر رفاته المتحللة، ولعل الشاعر أسقط الكوخ على نفسه، وجعل من نفسه رمزا للخوخ بدليل قوله (أنا)

ويتضح هذا من قوله"[١]

وأرى القصر تـوأم الكـوخ لـولا أن هـذا فقـر وذاك ثـراء
وأراني لصـاحب القـصر نـورا ولـو أني في عينيـه ظُلْـماءُ
أنـا إن مـتُ مـات فـن رفيـع وهـو إن مـات مـات طـين وماء

وما أجمل حسن التعليل الذي جاء في البيت الثالث تعليلا لقوله(وأراني لصاحب القصر نورا) فقد يسأل سائل كيف يكون وهو الفقير نورا للغني؟ فجاء التعليل في البيت الأخير، إنه رغم فقره له دور إيجابي في الخياة بينما الأخر لا أثر له يفاد المجتمع منه.

ويتحدث الشاعر عن فقدان العدالة الاجتماعية في المجتمع حيث الحكام، ومن عاونهم في حياة، وعامة الشعب لهم حياة أخرى فيقول:[٢]

بشـم القـوم بالطعـام.. وجعنـا و عـرينا واستمتعـوا بالبـرود
وجهلنـا وعلِّمـوا أن يـروْنا في حماهـم جحـافلا مـن عبيـد
....
عـالمٌ تفْـزع العدالـة منـه ووجـود سـئمت فيـه وجـودي
لـيس في الأرض سـيدٌ ومسـودِ فدعـونا مـن سيـدٍ ومسـودِ

فالشاعر بمثل هذه النماذج، وهي كثيرة في الديوان، يجعل القاريء لشعره في حيرة من أمره أهو شاعر ذاتي، انحصر شعره في التعبير عن عواطفه الذاتية، أم هو شاعر لم ينعزل عن مجتمعه بل شاركهم جلّ معاناتهم؟ والحقيقة أنه عندما تحدث عن ذاته كان يتحدث عن شريحة كبيرة من مجتمعه عانت معاناته، فهو شاعر إنساني، ولم تكن شكواه، وبكاؤه، أو رثاؤه إلا من باب حزنه على مجتمعه، والذي كان يود أن ينعم بالعدل، والأمن، ولا تفتقد فيه العدالة، أو تُحرم فيه المرأة حقوقها.

ومن نماذج فقدان العدالة، ما وجده الشاعر في مجتمعه من تناقض عجيب،

(١) الديوان، ص ٢٩٤.
(٢) الديوان، ص٣٤٥. بشم القوم بالطعام: أكثروا منه حتى اتخموا.

واختلال رهيب، حيث الجاهل سيد قومه، والعالم أسير هبة الجاهل، ، فالنابغة شريد طريد يعاني شظف العيش، وإذا ما تمنى فتات العيش إتهم بالكفر، بينما الغني يعيش سعيدا، ولا يجد الفقير من يستقبله إلا الأموات، ويتسائل الشاعر أي الفريقين يختار؟ فيقول:(١)

رأيتُ حظوظ الناسِ شتى فجاهل ... أميرٌ.. وأهل العلم في كفه أسرى
ونابغة فذٌ ..... يعيش مشردًا ... يكابد من أيامه الذل والفقر
فإن مات هبَّ النائمون فأمطروا ... ثراه الجديب القفر مدمعهم ثرًّا
وراحو يحيون الرميم بذكره ... وهيهات أن تجدي على الميت
لقد كان يرجو القوت لامؤمن به ... فظنوه يرجو المستحيل أو الكفرا
فأيهما أختار لو كنت مثله ... لعلي بحظ الفَدِّم في سعده أحظى

ومن مظاهر اهتمامه بالعدالة الاجتماعية مساندته للمرأة، حين طلبت حقها في دخول الانتخابات البرلمانية، فأفرد لها قصيدة أسماها (أعطوها حقها) و يقول مطلعها:(٢)

أفسحوا للذي تريد المجالا ... ودعوها إذا أردتم كمالا
إنها رحمة ... وصبر ... وحبٌ ... كَرُمتْ فطرة ... وعزَّت خِصالا
افتحوا البرلمان..... وانتخبوها ... فلكم فاقت النساء الرجالا
ولديكم..... تاريخها فاقرأوه ... تجدوها على النبوغ مثالا
وانظروا كيف صاغت الأجيال ... واستطاعت أن تخلق الأبطالا

ويتناول الشرنوبي ظاهرة (النفاق الاجتماعي) كظاهرة من الظواهر السلبية التي تفشت في المجتمع، خاصة بين الذين يتاجرون باسم الدين، فيظهرون بصورة تختلف عن جوهر حقيقتهم، ويضرب مثلا على ذلك بنموذجين يمثلان المجتمع (المسلم، والمسيحي) وكيف خدع كلٌّ منها الناس، فالأول أطلق لحيته، وتظاهر بالتقوى، وشدة التدين، و أنه قاريء للقرآن، محافظ على الصلوات يخطب الناس، فتدمع عيونهم من وقع كلامه وبلاغته، وإذا به في الليل رفيق قرناء السوء، بل

(١) الديوان، ص ٤٠٩. الفدم: قليل الفهم.
(٢) الديوان، ص ٥٤٩.

إمامهم في اقتراف الموبيقات، وشرب الخمور، والسخرية من العبادات، فله في النهار سمْتٌ، على نقيض ما يظهر به ليلا، ويصور الشرنوبي صورة هذا المنافق في قصيدته (المواكب) فيقول:(١)

وذو لحيـــة ترهـــق الماشـــيطين ... و مســـبحة تعجـــزُ الحاســـبينَ
يهـــزُّ النهـــارَ بـــآيٍّ الســـماء ... فيُـــبْكِي بترتيـــلها الســـامعين
فـــإن جمـــع الليـــل ندمـــانه ... راهُ إمامـــا عـــلى الشـــاربين
يضُّـــج بلعنـــةِ أقـــداره ... ويسْـــخرُ مِـــنْ خـــالقِ العـــالمينَ
فـــإن أنـــتَ ذَكَّـــرْتَه بالحســـابِ ... أقـامـــك رمـــزا للجاهلـــين

قالشاعر يرسم لوحة تجسد نفاق هذا (المزودج الشخصية) فهو في النهار إمام الناس العابد الزاهد، ويصف الشاعر طول لحيته، بأنها (ترهق الماشطين)، كناية عن كثافتها وطولها، أما مسبحته (فتُعجز الحاسبين) كناية عن كثرة عدد حباتها، ويستخدم الاستعارة في حسن صوته وهو يرتل آي القرآن بقوله: (يهزُّ النهارَ بآي السماء) فقد شبه النهار بإنسان يسمع ويعي ويتدبر ويظهر عليه أثر القراءة فيهتز خضوعا، وإذعانا، وحذف المشبه به وهو الإنسان، وأتى بشيء من لوازمه، وهو العقل، والحركة. أما الوجه الأخر في شخصية هذا المنافق فتتمثل في شخصية (العربيد) شارب الخمر الذي يسخر من العبادات، وحتى من خالق السماء، ولعل اختيار الشاعر للنهار رمزا للصلاح والتقوى، والليل لارتكاب المنكرات، والتجرؤ على الدين مقصود لسببين الأول: إتقان دور المنافق الذي يظهر بمظهر الورع، أن النهار رمز للأمل والنور، والليل دائما في عُرف الشاعر يمثل الكآبة، ولعلها هنا تكمن في سوء المصير، وظلمة القلب، ومن نماذج هذه الشخصية ما جاء في قصيدة (نسمات وأعاصير) في قوله:(٢)

دُنِّـــسَ الـــواعِظُ القـــديرُ فـــأخفى ... رِجْسَـــهُ في غلائـــلَ مـــن بلاغـــهْ
أحْرِقُـــوه فلـــيس أخطـــر منـــه ... ودَعـــوا الشـــمسَ كي تســـدَ فراغـــهْ

فالشاعر يحذر المجتمع من خطورة أمثال هذه الشخصيات، ويطلب من

(١) الديوان ص ٣٣٣.
(٢) الديوان، ص ١٩٦.

المجتمع حرقهم، وعندما اختار الشمس بديلا للنفاق، هو في الحقيقة يختار الصدق، والحق فالصدق واضح أبلج كضوء الشمس في كبد السماء، ولأن صفة الخداع والنفاق باسم الدين شاعت في المجتمع يشير إلى أن الدين الإسلامي ليس هو الدين الوحيد الذي يتستر به المنافقون، بل مطلق الدين، ويضرب مثلا بما يفعله رجال الكنيسة، وراهباتُها، فهذا الذي يُرمزُ له في المسيحية (بالأبِّ) ومثالا للزهد هو الأخر مزدوج الشخصية، ويبدع الشاعر في استخدام وسائل التصوير، فيرسم لوحة معبرة لصورة هذه الشخصية تجسد صورة النفاق والمنافقين فيقول:(١)

ومُنْتبـــذٌ في حمـــى الأديـــرة ... يفـــكرُ في الـــروح والأخـــرهْ
فـــإن خطـــرتْ حولـــه الرهبـــاتُ ... أطـــاحتْ بـــه النشـــوةُ الغـــامرهْ
وراح بعينيـــه يُزْجـــي الصَّـــلاه ... إلى كـــل فـاتنـــة قـاهـــره
بهـــا مـــا بـــه شـــهوةٌ قُيِّـــدت ... فَشَبَّـــتْ فـــثارتْ بهـــا الثائـــره

والحق أن الشاعر أجاد في وصف صورة المنافق في الطرفين (المسلم، والمسيحي) على حدٍ سواء فإذا كان الأول استخدم اللحية، والمسبحة، والقرآن وسائل خداع، فالأخر استخدم الرهبنة، والاعتكاف في الكنائس، والأديرة وسيلة خداع، فهو يكثر من ذكر الروح، والإبن، والأم، بينما تراقب عيناه كل مليحة، ويدغدغ مشاعرها بأطيب الكلمات، والشاعر ينتقد عملية الرهبنة، ويرى أنها لا تؤدي إلى التقوى بقدر ما تؤدي إلى الحرمان، الذي ما إن تواتيه الفرصة حتى ينفجر، وعبر عن هذا الانفجار بقوله: (يلتقيان)، للدلالة على ارتكاب الفاحشة، وقد أحسن الشاعر اختيار لفظٍ لا يخدش الحياء، وفي نفس الوقت دلَّ على المعنى المراد، بدليل بكاء المسيح، وشكواه، وخيرا ما ختم به الشاعر المقطوعة حين وصف مريم البتول ب (الطاهرة)؛ ليدلل على أن هؤلاء المنافقين كان عليهم أن يقتدوا بالطاهرة التي يدينون بدينها، وكما أبرز الوجهين في صورة المنافق الذي لبس لباس التقوى (اللحية، المسبحة، القرآن)، وبيان المفارق بين حاله ليلا ونهارا، ذكر هنا أنه(يفكر في الروح، والأخرة) ثم الوجه الأخر(أطاحت به النشوة، راح بعينيه، الشهوة، الفاتنة)، إن شيوع ظاهرة النفاق في مجتمعه أقلقته، وجعلته لا يثق في أحد من الناس، لذا في قصيدته (نسمات وأعاصير) يعلن فقدانه الثقة في الناس لكثرة ما

(١) الديوان، ص ١٩٣.

رأى من تقلبهم فيقول:[١]

لا تلمـــن إذا نقمـــت عـــلى النـــا ... س فقـــدْ مضَّـــني ضـــلال النـــاسِ
كلـــما دواويـــت جرحـــي حُنونًـــا ... قـــــذفون بصـــــيْغة الإحســـــاسِ

ويقول في هذا المعنى، و في ذات القصيدة، - وهي مطولة على شكل ثنائيات[٢]

أنقـذيني يـا كـأس مـن عبـث النـا ... س فهـــم في وقـــارهم مِســـلاةُ
ربمـــا كـــان في المـــواخير نسَّـــا ... ك وفي المعبـــد الطهـــور عصـــاةُ

وحتى عندما هجا وجهه في قصيدته (هجاء) عاد ليمتدحه؛ لأنه وجد فيه ما لم يجده في كثير من أبناء مجتمعه، حيث وجده لا يتلون فيقول:[٣]

فـاعفُ عنـي إذ هجوتـك يـا وجْـ ... ـهي فـلا زلـتَ قُـدوة الصُّرحاء
إن تجهَّمـــت فالحيـــاة عُبـــوسٌ ... أو تهللـــتَ فهـــي نبـــع صـــفاء
وكفـــاني أني أعيـــش بوجـــهٍ ... واحـــدٍ في السَّرّـــاء والضَّرّـــاء
ولغـيْري مـن الانـاسي أن ينشرـ في ... ض مـــــذهب الحربـــــاء
مـذهبَ الـواغلين في كـلِّ عـرضٍ ... والمُجَـــلِّين في ســـباق الريـــاء

ومن نماذج انتقاده لسلبيات المجتمع خيانة الصديق، فقد عانى الشاعر من غدر الأصدقاء، ولم تكن هذه حادثة منفردة بل رأها الشاعر سلبية تفشت في مجتمعه، ومن معايشته لتجربة مثلها أقام الشرنوبي موازنة بين ما فعله صديقه، وما قدمه هو لهذا الصديق، وهو يحدثنا عن الصديق يذكرنا بالصديق (أبو بكر) رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيقول:[٤]

ذهب الصـدق والصـديق فـدنيا النَّـ (م) نـــاس دُنيـــا الذِّئـــاب والأغنـــام
كـم صـديقٍ محَّضـته الـودَّ صـرفا ... كـــان أقسىـــ عـــليَّ مـــن أيَّامـــي
وصـــديق ســـقيته مـــن حنـــاني ... فســـقاني كـــؤس عيـــش زؤام

(١) الديوان، ص ٢٠٦.
(٢) السابق، ص ١٩٣.
(٣) السابق، ص٢٦٥.
(٤) الديوان، ص ٤٤١.

وصـــديق جعلـــت نفسي ـــ فـــداه ذائـــدا عـــن حياضِـــه بســـهامي
ثـــم مـــال الزمـــان يومـــا بحظِّـــي (م) فـــــإذاه في الـــــروع أول رام!!
وصـــديقٍ حميتـــه مـــن ضـــياعٍ فبنـــى صرح مجـــده بحطـــامي !
وصـــديقٍ جعلـــتُ أهـــلي لـــه أهـــ (م) ـــــلا وعطفـــي لأهلـــه وســـلامي
وجعلـــتُ الوجـــود جنَّـــة قلبيـــ ـــنِ يعيشـــان في ظـــلالِ الوئـــامِ!
فحيـــاتي حياتـــه فـــي المعـــاني الآ دميَّـــات والوجـــود السَّـــامي!

وظل الشاعر طوال القصيدة يعدد أصنافا من الأصدقاء، لم يراعو حق الصديق، ولذا أيقن أن الصداقة الحقيقية في هذا الزمان وهمٌ وضرب من الخيال فقال:

هـــو حلـــمٌ كهـــذه الأحـــلام و هـــو وهـــمٌ.. كســـائر الأوهـــام
شابت الأرض وانحنـى كاهـل الدهـ ـــر وسرُّ الصـــديق طـــيّ المعـــامي
وســـتفْنَى الـــدنيا. وتجـــري النهايـــا ت... وتطـــوى صـــحائف الأيـــام
وهـــو مـــازال كالأســـاطير... لفـــظ حـــائر في الشفـــاة والأقـــلام
والأحاديـــث عـــن وجـــود صـــديق كالأحاديـــث عـــن وجـــود الســـلامِ

وهكذا تناول الشاعر بعضا من مظاهر السلوك السلبي في مجتمعه، كما شُغل بقضايا العدالة الاجتماعية، وحقوق المرأة، مما يؤكد إنسانيته، وأنه لم ينعزل عن مجتمعه رغم كثرة معاناته، بل إنه قد يكون من أكثر أبناء قومه انفعالا وتأثرا، وهذا لاشك كان له مردوده السلبي على ذاته.

المبحث الثاني
مشاركة الآخر قضاياه الوطنية

الوطن، والموطن هو أرض المنشأ التي يحبها الشاعر، وينتمي إليها، ولذا يُعدُّ الوطن أول ما يلجأ إليه الشاعر للتّعبير عن مشاعره، وربما يعود الفضل للشعر في معرفتنا للكثير من الظروف التي مرَّ بها الوطن، فالشاعر ابن بيئته، وكان الشاعر على مرِّ العصور يمثل البوق الإعلامي لوطنه، يسجل مفاخره، وما يتعرض له من دسائس، والمتابع لحياة الشرنوبي رغم قصرها - ١٩٢٤/ ١٩٥١م - يجد أنها تمثل فترة من أشد المراحل السياسية التى مرت بالبلاد، فقد شهدت مصر خلالها، وضع دساتير، ومعاهدات، ومحاولات للتخلص من الاستعمار، والحكم الفردي، وقد تبارى الشعراء في بيان حبهم للوطن، والذود عنه، وكان الشرنوبي ممن حملوا راية الدفاع عن الوطن من منطلق حبٍّ جارف، فهو يتمنى لوطنه العزة والمجد، وكيف أن حياته مرهونة بعزه، وتقدمه، فها هو يتحسر على ما آل إليه حال مصر، وقد فني شبابها، وافتقر فلاحوها، وعانى عمالها، بينما أعداؤها ينعمون بخيراتها، ويعلن في قصيدته (من وحي الشهيد) التي أهداها إلى روح الشهيد، أنه فداء لمصر فيقول:[١]

مزجـــت مصـــــر دمعهـــا بدمائـــه ... وتهـــاوت تبكيـــه فـــي برحـائـــه
لهفـى نفـــسي علـيهما وهـــي تـبكي ... وهـــو يشْرـــي بقاءهـــا بفنائـــه
كـــبُرتْ نفسُـــه الكريمـــةُ أن يحـــ ... يـــا حيـــاة الجـــريح فـــي كبريائـه
فـــأسرَّت إليـــه أن حطـــم القيـــ ... ـــد وطهِّـــر ســـناك مـــن ظلمائـه
فأجـــاب النِّـــداء لبَّيْـــكِ يـــا مصـــ ... ـــر وللصـــوت رجفـــة فـــي دمائـه
وتعـــالى إلـــى الســـماءِ شهيـــدا ... جـــلَّ هـــذا الشـــيهدُ فـــي عليائـه

فالشاعر يرثي شهداء مصر الذين ضحوا بدمائهم في سبيل أن تعيش مصر حرَّةً أبيةً، وإذا نظرت إلى العنوان (من وحي الشهيد)، وجدته يجسد معاني القصيدة، وما هدف إليه الشاعر، من إزكاء روح التضحية، " فالعنوان رسالة لغوية تُعرِّفُ بتلك الهوية، وتحدد مضمونها، وتجذب القاريء إليها، وتغريه بقراءتها،

(١) الديوان ص ٢٧٠.

فهو(العنوان) الظاهر الشعري الذي يدل على باطن النص ومحتواه"[١]هذا عن العنوان، وجاذبيته التي تجعل المتلقي في انتظار أن يعرف ما الذي تحمله هذه الرسالة، أما عن المطلع، فقد اختار أن يكون مُصَرعا[٢]، ويرى النقاد أن التصريع فيه دلالة على أن الشاعر مطبوعا، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا على التصريع، كان أثقل في بابه، لأن الشعر قائم على التسجيع، والتقفية، وكما أن مطلع البيت يميز بين الابتداء وغيره، ويُفهم منه تمام البيت، وروي القصيدة وقافيتها، فكلما كان لمطلع القصيدة طلاوة، وموقعا من النفس، دلَّ ذلك على باقي القصيدة.[٣]

وبالنظر في القصيدة يبدو واضحا شدة تألم الشاعر بسب نزيف دماء الشهداء، والمحبين لوطنهم المهدرة دماؤهم، ويرى أن هذه الدماء لم تبكيه وحده، وإنما أبكت كل الوطن (مزجت مصر دمعها بدمائه)، وانظر إلى اختيار الشاعر للفظ، ومدلولاته (مزجت) فهذا اللفظ يوحي بأن مصر (الشعب) كانت مع الشهيد في كفاحه، ودماء الشهيد اختلطت بدموع شعبه، فلم يقل ودعت، بل امتزجت مما يدل على الالتصاق والترابط، كما أن قوله (يشري بقاءها بفنائه) يجسد حجم التضحية، فالشهيد يعلم علم اليقين أنه مقبل على الموت والفناء، ولكنه استقل حياته، مقابل حرية بلاده، والممعن في الأبيات يجد الشاعر وظف الدلالة الزمانية في ترسيخ المعنى (التضحية)، فقد أكثر الشاعر من استخدام الفعل الماضي (مزجت/ كبرت/ تهاوت/أسرت/ أجاب)، ودلالة الماضي أفادت أن هناك قرارا قد اتُخذ، ونفذ، في سرعة شديدة، بدليل قوله (فأجاب)، ولما كانت هذه الإجابة السريعة والمفهومة من الفاء، كان المنطق يقتضي أن تكون الإجابة نابعة من طلب، لذا جاء دور فعل الأمر (حطِّم/ طهَّر)، ولا شك أن من أمرته مصر بالتضحية فلبى بهذه السرعة، يستحق أن تبكيه الأمة مدى الحياة، ومن هنا ناسب أن يأتي الشاعر

(١) قراءات في الشعر العربي الحديث، بشرى البستاني، دار الكتاب العربي بيروت، ط ٢٠٠٢م، ص ٣٤.

(٢) والتصريع: يعني أن تكون عروض البيت تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته.راجع العمدة لابن رشيق القيرواني، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط٣، ج١، ص ١٧٣.

(٣) للمزيد من التعرف على مزايا القصيدة يراجع نقد الشعر لقدامة بن جعفر، ت كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط الثانية، ص ٦٠، وسرِّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، طبعة القاهرة ١٩٥٢، ص٢٢٢.

بالفعل المضارع (هي تبكي) أ ي مصر، (أن تحيا) يقصد الشهيد، وكلها تعني الأستمرارية، فالخلود للشهيد، والبكاء الدائم عليه من الأمة لن ينقطع.

وما كان لشاعر يخص الشهيد بهذه القصيدة الباكية، الناعبة، إلا وأن يكون وطنيا، يفتدي بلاده بروحه؛ ولذا وجدناه يعلن عزمه على التضحية بالنفس، ويتحسر على ما آل إليه حال وطنه فيقول:(١)

مصر لا كنتُ من بني النيل إن عشْـ (م) ـتُ ونيلُ الخلود يشْقَى بدائهْ
أنا ابن الفلاح عضَّني الفقـ (م) ـرُ بنابٍ أواه من بلوائهْ
وأنا العامل الشقي بجهلي المريضُ المحروم من أهوائهْ
أنا أفنى في مصرـ جوعا وغيري يتسلَّى بتبره وثرائهْ !
أنا أفنى في موطني وعدوِّي يتلهى بخمره ونسائهْ
لا عرفتُ الحياة إن عشتُ يوما وعدوِّي يتيه في خُيلائهْ
ولنهرِ الخلودِ في مسمعِ الكو (م) ن شكاةُ المطعونِ في أحشائهْ
وأنا الشاعر القدير بفنّي أن أرادَّ الحياة في أشْلائه

فالشاعر يختتم المقطوعة بنفس ما بُدِئت به، بالأعلان صراحة أنه فداء لمصر، وأنه لاحياة له، ولا قيمة لهذه الحياة بدون أن تسترد مصر حريتها وكرامتها، يقول في بدء القصيدة (لا كنت من بني النيل إن عشت ونيل الخلود يشقى بدائه)، ويقول في ختام المقطوعة (لا عرفت الحياة إن عشت يوما وعدوي يتيه في خيلائه)، وما بين البدء والختام يحدثنا الشاعر عن أسباب هذه التضحية؛ إنها من أجل هذه المناظر التي تدمي القلوب تحكي تردي أحوال مصر في ظل وجود مستعمر قابض على مواردها وثرواتها، حتى عضَّ الفلاحَ الفقرُ، وشقي العامل، وجاع الناس، ومما يلفت النظر في الأبيات كثرة تكرار ضمير (الأنا) تكرارا رأسيا في مطلع الأبيات، فالظاهر في ضمير الأنا الفخر، وقد يكون موجودا فيقال بأنه يفخر بأنه ابن الفلاح، والعامل، والشاعر، وأنه يفنى من أجل مصر، وهذا معنى ظاهري قريب وموجود، ولكني أظن أن هناك معنى آخر أبعد، وأعمق وذلك لو قرأت ضمير الأنا مقرونا بخبره، وما و صِفَ به هذا الخبر، تجده مقرونا بمظاهر

(١) الديوان ص ٢٧٢.

البؤس، والتي لا تدل أبدا على الفخر حيث يقول (أنا ابن الفلاح عضني الفقر/أنا ابن العامل الشقي، الجاهل، المريض/ أنا الذي أفنى جوعا) فالشاعر قرن الضمير في سياق مسببات ضياع الأمة (الفقر، والجهل، والمرض)، ولتكتمل الصورة جاء بالنقيض حيث المحتل، وأعوانه(يتسلى بتبره، وثرائه، ويتلهى بخمره ونسائه)، وقد استخدم الشاعر عنصر التصوير، مما أكسب شعره جمالا، وتأثيرا، حين وصف الفقر بحيوان مفترس يفتك بالفلاح على سبيل الإستعارة المكنية فقال(عضني الفقر بناب) ولتعظيم أثر هذا الناب، ومدى ما يحدثه من ألم قال(أواه من بلوائه)، ولا تستخدم (الآهة) إلا في حال التوجع والذي وصفه الشاعر بأنه ابتلاء(بلواه)، وهناك مقويات للصورة مثل الطباق في (أفنى ويتسلى/وأفنى ويتلهى/والجوع والثراء)كما توجد المقابلة بين معظم أشطار الأبيات، خاصة في البيتين (الرابع والخامس)، وحتى لا تضيع دماء الشهداء بلا جدوى، أو يفنى دون تحقيق أمل الحرية، يستنهض الشرنوبي الشباب، ويحثهم على مواصلة الجهاد، فينادهم، ويذكرهم بأمجاد وطنهم، فيقول في ختام القصيدة:

ياشـــباب الجهـــاد نـــاداكم النِّيـــ (م) ـــــلُ فـــــأَحْيوا أرواحكـــــم
إنـــه النيـــل قلـــب مـــصر وأنـــتم يـــا شـــباب الجهـــاد مـــن أبنائـــه
أنْصِـــفُوه ممَّـــن أحلُّـــوا دمـــاءً حـــرَّمَ اللـــه ســـفكها في ســـمائه
ولكـــم في الشـــهيد أســـوةٌ حـــقٍّ (جـــلَّ هـــذا الشـــهيد في عليائـــه)

فالشاعر يستحث الشباب، ويستنهض الهمم، ويكرر النداء (يا شباب)؛ لما يأمله فيهم، فهم عماد الوطن، ولم يجعل النداء موجها من فرد، بل من النيل الذي هو رمز الوطن، وشريان حياته، وكأنه يناديهم أنقذوا الشريان من الضياع، لذا كان الشاعر موفقا في قوله في الشطر الثاني من البيت الأول (فأحْيوا أرواحكم بفدائه)؛ لأنه لما كان النيل شريان الحياة، كانت المحافظة عليه هي الحياة نفسها، ولذا جعل افتداءه، والتضحية من أجله حياة وليس موتا، وقد أكد هذا المعني في قوله (إنه النيل قلب مصر)، وكأنه حسن تعليل للشطر الثاني من البيت الأول، فالنيل هو (الشريان، وهو القلب)، ويعظم الشاعر مصر، وسماءها فيجعل لها حرمة سفك الدماء تحت سمائها (أحلوا دماءً حرم الله سفكها في سمائه) وكما افتتح القصيدة بطلبه الاقتداء بالشهيد، اختتمها بأن يُتَّخذ الشهيد قدوة فيقول:

ولكـــم في الشـــهيد أســـوة حـــق جـــلَّ هـــذا الشـــهيد في عليائـــه

وإذا كان الشاعر في قصيدة(من وحي الشهيد) قد طلب من الشباب الاقتداء بالشهيد، فإنه في قصيدة(البعث)فعل نفس الشيء، وانظر إلى سميائية العنوان، ودلالته، وكأني بالشاعر يوقظ الأمة من قبورها، فهل لصرخاته ونفخته صدى؟، نعم فقد بدأ الشعب ينهض، واستشرف الشاعر قيام ثورة حقيقية، حيث أنشد قصيدته في الثالث عشر من نوفمبر سنة ألف وتسعمائة وسبع وأربعين، أي قبل قيام الثورة بأقل من أربع سنوات، ويقول في مطلعها موجها خطابه إلى مصر[١]

اسْـبقي الشـمس كالشـعاع وثوبـا واسْـأليها يـا أختاهـا أن تثوبـا
طـال هـذا الـدجى علينـا وحالـت ضـحكاتُ الحيـاة فينـا نعيبـا
كـل ليـلٍ لابـدَّ أن يعقبـه الفجـ (م) ـر فـلا أَخْـذِ الحيـاة قُطُبـا
وانسـخي ظلامـة المقـادير فجـرا رائـع النُّـور سـاحرا موهوبـا

فالشاعر يطلب من مصر، والتي سماها(أخت الشمس) حين قال (واسأليها يا أختها أن تثوبا) أن تكون كشعاع الشمش قوة، وأن تستفيق من غفلتها، وتخرج من ظلماتها(طال هذا الدجى علينا)، إلى متى النوم، وقد تحولت الضحكات إلى مآتم، وعويل (ضحكات الحياة فينا نحيبا)، فإذا كانت ضحكات الحياة نحيبا، فما بالكم بنكباتها؟، ومع ذلك يستشرف الشاعر أمل الثورة فيقول (كل ليل لابد وأن يعقبه فجر)، وأنه لا داعي إذا للحزن أو العبوس؛ ولذا يطلب من المصريين أن يبدلوا الظلام نورا، وبالعبودية حرية، وأن تتفجر في عروقهم دماء الثورة، ويخاطب الحرية المنشودة، وقد جرت روحها في عروقه

فتفجـرت في عروقـي دمـاء وتـدفقت في دمـائي لهيبـا
فـاحتقرتُ الحيـاة يثقُلهـا القيـ ـد وأقْبلـتُ كالريـاح غَضُـوبا
أطلـب المجـد بالكفـاح وأبنـي بعظـامي مكانـه المغْصـوبا

فالشاعر من خلال ما يدور في نفسه من ثورة على الظلم والظالمين، يقدم لوحة تصويرية يستشرف من خلالها مقدم ثورة، وقد أكثر الشاعر من صوره البيانية المجسدة لهذه الصورة، حيث شبه جموح الثورة في الصدور، بالرياح

(١) الديوان ص ٣٩٩.

الشديدة العاتية، التي ستقتلع كل ما يواجهها (وأقبلت كالريح غضوبا)، وفي قوله (أبني بعظامي مكانه المغضوبا) صورة استعارية حيث شبه العظام بالأحجار التى يقام بها البناء، وحذف المشبه به الأحجار، وأتى بشيء من لوازمه وهو البناء، واختار التعبير بالعظام؛ للإشارة على أنه افتدى وطنه بالروح، ووهب عظامه لتكون مجرد حجر يرفع صرح الوطن، والدليل على أنه ضحي بروحه؛ قوله (عظامي)؛ لأن العظام تطلق على بقايا الجسد بعد أن تفارقه الروح، واختار لفظ (أبني) للتدليل على أن الوطن هُدِمَ، ويحتاج إلى إعادة بناء، كما جاءت الاستعارة في قوله (فاحتقرت الحياة) حيث شبه الحياة بإنسان يشعر ويعقل، كما أنها تعني أنه باع الروح ليشتري الحرية، والدليل على ذلك أنه لم يعد غير عظام.

وفي المقطع الأخير من القصيدة يعلن الشاعر تأكده من الثورة التي أضحت على الأبواب فيقول:(١)

إن للشـــعب ثـــورة تـــوقظ الغـــا ... في وتحْـــي قبـــل القلـــوب الجســـومَ
ومـــن المـــوت أن تعـــيش ذلـــيلا ... ضـــائعَ الـــرأي حـــائرا منهـــوبا
ومـــن المجـــد أن يـــدين لـــك المجـــ ... ـــد قـــويًّا مـــلّءُ الحيـــاة أريـــبا
والحيـــاة الحيـــاة حـــقٌ وقلـــبٌ ... فاصـــحب الـــدَّهر رائشـــا أو مصـــيبا

فالشاعر يتنبأ في أسلوب خبري مؤكد (بأن) أن الثورة قادمة لا محالة- فلابد للغافل أن يفيق، كما أن الثورة تبعث في القلوب قبل الأجسام، وأن من يرتضي العيش ذليلا، هو في الحقيقة قد مات، وفارق الحياة، أو فقد الإرادة، ، وأصبح في مهب الريح، كما أن المجد لا يأتي هبة، أو منحة، بل يُنتزع انتزاعا بقوة الإرادة، وفي قوله (أن يدين لك المجد قويا) يطلب الشاعر من المصريين ألا يرتضوا أي مجد بل لابد أن يكون قويا عزيز، وأن يجعلوا المجد يدين لهم.ويستحث الشاعر قومه - فيذكرهم بأمجادهم، وماضيهم التليد، وكيف أنهم سادوا العالم، فإذا كان السلف قد حقق لنفسه مجدا، فلمَ لا يسير الخلفُ على درب السلفِ؟ فيحققون أمجادا، ولا يعيشون عالة على مجد أسلافهم، ولمَ لا وهمْ (أبناء أم الدنيا)؟! فيقول:

قـل لشـعبٍ قـادَ الشـعوب إلى المجـ ... ـد قـديما ولم يُبـال الخطـوبا

(١) الديوان، ص ٤٠١.

ذهـــب الســـالف البعيـــد فهيـــيء لـــك المجـــد عـــلى الزمـــان قريبـــا
مصـــر أم الـــدنيا ونحـــن بنوهـــا وعـــلى حبهـــا طوينـــا الجُنُوبـــا
أنكـــرتنا كنـــانة اللـــه إن لم نتـــبوء مكاننـــا المســـلوبا

وفي مطولته (المواكب) التي تمثل حصاد تجربته، ورؤى فكره، يعدد الشاعر ألوان الطفولة في مصر، في أكثر من خمس خماسيات كل خماسية على قافية منفردة، إلى أن يصل إلى الطفل الوريث ربيب الملك فيقول:(١)

وطفـــلٍ تمـــوتُ عـــلى مهـــده مُنـــى الأمـــس والغـــدِ والحـــاضر
أتى دون داعٍ ولا مُجِـــــــــبِ ولا ســـــبب واضـــــحٍ ظـــــاهرِ
سِـــوى نـــزْوة في دم الوالـــدين تُـــؤجُّ بيحمومهـــا الفـــائرِ
هـــما ورثاهـــا عـــن الوالـــدين وذابـــا عـــلي جمرهـــا الســـاعر
فكـــانا إمتـــدادا لأحلامهـــم وبؤســـهم الخالـــد القـــاهرِ

فالشاعر يستنكر عملية التوريث، فإذا كان الشعب يرفض الأصل فكيف يرتضي الفرع؟إن عملية التوريث ما هي إلا عادات توارثوها؛ ليظل الأمر بأيديهم، وليذق الشعب كؤوس العذاب، ولعل الذي دفع الشاعر إلى مهاجمة الملك ووريثه عاملان، الأول يتعلق بحبه لوطنه، والآخر يتعلق بما يشاهده من مأسي الشعب، حتى أن الشاعر دفعته استكانة قومه إلى السخرية منهم في قوله

شـــياه تـــودُّ اخـــضرار الجـــديب لتســـمن للـــذئب لا للحيـــاة

ويرسم الشرنوبي صورة للحاكم الظالم، واستسلام الرعية لظلمه، فيقول:(٢)

وفـــوق الـــذرا حـــاكم في عـــلاه يـــرى قومـــه أمـــة مـــن شـــياهْ
شـــياه تـــودُّ اخضرـــار الجـــديب لتســـمن للـــذئب لا للحيـــاه
تنـــام عـــلى الشَّـــكِ حتَّـــى إذا نمـــا الـــوردُ كـــان دُخانـــا شـــذاه
وراعٍ طـــوتْ نايَـــه الســـافياتُ وغـــابَ بجـــوف الـــروابي صـــداه
يهـــشُّ إلى رقصـــات المنـــى وكـــلُّ الـــردى كـــامن في مُنـــاه

(١) الديوان، ص. ٣٣٦.
(٢) الديوان، ص ٣٣٣.

فالشاعر يصف الملك بأنه يعيش في برج عاج بعيدا عن شعبه (وفوق الذرا حاكم في علاه)، إن هذا البعد والعلو على الناس جعله ينظر إليهم من علٍ، فيراهم صغارا، بل شياه لا بشرا (يرى قومه أمة من شياه)، ورغم جعلها قافية البيت الأول، إلا أنه افتتح بها البيت الثاني، وكأني بالشاعر، وقد امتلأ غيظا من سلبية قومه واستسلامهم، فجاء الوصف القاسي في البيت الثاني، أو لعله تعليل لرؤية الحاكم لهم، حيث وجدهم خانعين، وكأنما خُلِقوا ليكونوا عبيدا، مهمتهم إمتاع الحاكم، وخدمته، لا يعرفون لأنفسهم حقوقا؛ ولذا عدد صور معاناة هذه الأمة، فهم لا يحْلَمُون بالحرية، ويرتضون بالشوك بديلا عن الورد، حتى رائحة الورد لا يشمونها، فقد زُكِمتْ أنوفهم، وفي المقابل من الصورة مّلِكٌ مرفهٌ مستبدٌ، بإشارة منه تكون عذابات الناس، وقد استعان الشاعر في بلورة صورته بوسائل تصورية، كاللون، والحركة، والشم، فاللون ماثل في (الجدب، والإخضرار، وما يحمله الورد من ألوان)، و الحركة في (نما، ويهش) وهناك الرائحة في (دخان، وما ينبعث من الورد)، ولا يخفى براعة الشاعر في إقامة المفارقة بين الحاكم، والرعية فهذا فوق الذرا، وذاك ينام على الشوك. ولذا لا عجب أن يسب الشاعر الملك سبا مباشرا رغم علمه بخطورة ما يمكن أن يصبه فيقول:

فهـذا ابـن أُنثـى غـوي الفـؤادْ ... رسـالته أن يعيـثَ الفسـادْ
رقـابُ الأمـاني منقـادَةٌ ... إليـه ... وطبـع الأمـاني العنـادْ
حَبَتْـه المقـاديرُ مُلـك الـثرى ... و ألقـتْ إليـه أمـور العبـادْ
فُجُـنَّ بأهوائـه الآثمـات ... يـرى بحرهـا مـا لـه مـن نفـادْ
فـما خنقتـه دمـوع الأسى ... ولا طوَّقتـه معـاني الحـدادْ

فالشعر يخص الملك بأشد عبارات السباب (هذا ابن أنثى غوي الفؤاد)، فهو ينسبه إلى الأم، وليس الأب، ويصفه بالغاوي، ويجعل رسالته محصورة في الفساد، وقطع الرقاب، كما أنه مجنون بأهوائه، لم يشعر بالمعذبين؛ لأنه لم يذق طعم المعاناة.

والممعن في قصيدة (المواكب)، ومن خلال عرض أكثر من خماسية من خماسياتها، تلمس حرص الشاعر على بدء كل خماسية بالتصريع، وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من تمكنه من فنه، وثانيا: إدراكه بقيمة المطلع، ووقع النغم

الناتج من التصريع في المساعدة على جذب انتباه المتلقي، ولأن القصيدة مطوله تحوي خمسا وأربعين خماسية، بما يعني أنها مئتان وخمسة وعشرون بيتا.

ويتحدث الشرنوبي عن مصر، وما فعله بها المحتل، فقد تحول الناس إلى خُشبٍ مسندة، أو مجموعة من التماثيل المجوفة، كما أصبحت الأرض الخضراء جديبة جرداء، رغم امتلاك كل مقومات السعادة، فقد حُولِتْ من بلاد سعيدة إلى شعب تعيس الحظ، فهاهم العمال الذين يصنعون الحياة يعيشون في ضنك، إنه شعب طُبِعَ على الإيثار، وعَرف فيه الحكام ذلك فطغوا، وتجبروا وتلك طبيعة فيهم أيضا، فاجتمع المفرط في حقه، مع المتجبر فكانت مصر التعيسة، ويصف ذلك في قوله:[١]

فهنا مصر أمة مسختها كالتماثيل عصبة السامريِّ
وطنٌ جامع وحظٌّ مُشِتٌّ قصَّة خبّلت حِجا القصصي
عامل يصنع الحياة ويرجوها فتاتا يجفوه كلب الثري
يؤثرُ الناس بالبقاء ويفنى ومن الظلم طينة الآدمي
همُّه الفكر في المجاعة والدَّين وعقل الفتى وسقم الصبي

ولعل حديث الشاعر عن طبع الظلم الذي رُكِبَ في الإنسان (ومن الظلم طينة الآدمي) فيه تأثر بقول المتنبي[٢]

الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظْلِم

ويستنكر الشاعر، ما أصاب المجتمع من فرقة، وقطيعة رحم، حتي بلغ بهم الأمر أنهم أصبحوا يدا للظالم على إخوانهم، فبأيديهم كمْ مِنْ ثائر سُحِقَ؟، وكم من عبقري فُنِى ؟! فيقول:[٣]

كم أعانوه خفية وجهارا ليردُّوا به المصير الرهيبا
وأغاثوه واستغاثوا كيما يسحقوا ثائرا و يُفْنوا نجيبا
خدعتْهم أوهامهم فتعاموا عن مُنى الشعب واستحلوا الذنوبا

(١) الديوان، ص ١٤٥.
(٢) ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتب العلمية، مجلد٢، ٢٠٠١ م، ص ١٨٦.
(٣) الديوان ص ٤٠٠.

ويُذكِر الشاعر قومه بقيمة الحرية، وأنها شيمة الأجداد، وأها يجب أن تكون شعار كل جيل، فيقول:

الحيـــاة الحيـــاة للأمـــة الحـــرَّ (م) ة فـــوق الأغـــلال والتَّقييـــد
ذاك ديـن الأحـرار في كـل جيـل وهـو ديـن الأجـداد بعـد الجـدود

ويحرض الشاعر الشعب على الثورة، ونيل الحقوق، وعدم الاستكانة لظلم الظالمين، فيقول:[1]

قولـــوا لشـــعب النيـــل وهـــ (م) ـــو أبـــو الحضـــارة في الشـــعوب
المجـــدُ منـــك فعـــش لـــه رغـــم التعاســـة والكـــروب
لا يقّعـــدنك عـــن مـــرادك بطـــش جبـــارٍ عنيـــد
فـــالموت في ســـاح العـــلا خـــيرٌ مـــن العـــيش المـــريب
والحـــرُّ تخلقـــه الخطـــو (م) ب ولا يُنَهْنـــه باخطـــوب

وفي نفس القصيدة (قولوا لهم) يوجه الشاعر رسالة إلى المستعمر بأن دين المصرين قائم على الكرامة، ولن يرتضوا المهانة فيقول:

قولـــوا لهـــم إن الكـــرا (م) مـــة ديـــن أبنـــاء الكنانـــه
جـــاء الزعيـــم بـــه فـــآ (م) منـــا وقدســـنا بيـــانه

فالشاعر يؤمن كل الإيمان بحق وطنه في الحرية، وإجلاء المستعمر عن البلاد، وأنه لا يجب أن لا يتفاوض المرء على حقوقه، ويتضح ذلك من قوله في قصيدته (روح الجهاد):[2]

وأرى الجهـــاد قضـــية طالـــتْ عـــلى مـــرِّ الســـنين
فاحيـــوا كرامـــا أو فولـــو وجهكـــم شـــطر المنـــون
فـــالموت في ســـاح العـــلا خـــيرٌ مـــن العـــيش الغبـــين

فالشاعر دائما ما يكرر قوله إن الموت في ساحات القتال أشرف من العيش في كنف ذل المستعمر، أو الحاكم الطاغي(فالموت في ساح العلا خير من العيش

(١) الديوان ص٢٧٥. ينهنه: يكفه ويزجره.
(٢) الديوان ص ٣٠٦.

المريب، ، والموت في ساح العلا خير من العيش الغبين)، وهكذا شارك الشاعر الإنسان (الشرنوبي) مجتمعه قضاياه الاجتماعية، والوطنية، وفي المبحث القادم سيتناول البحث مشاركته هموم أمته.

المبحث الثالث
مشاركة الآخر قضاياه القومية

القومية مصدر صناعي من كلمة (قوم) أي جماعة، وهي تعني صلة اجتماعية عاطفية، تنشأ، من اشتراك جمع من الناس في الوطن، والجنس، والدين، واللغة، وتنتهي بالالتصاق، والتعاون إلى وحدة قومية كالقومية العربية[١].

والحق أن إنسانية الشرنوبي تعدت الذات والوطن، إلى قوميته الإسلامية والعربية، فقد آمن الشاعر بالرحم الإنسانية التي تأصل روابط الأخوة العربية، فعمت نظرته الإنسانية أرجاء أمته، فيذكرهم بالأمجاد أحيانا، ويستنفرهمم بالعروبة والاسلام، وبالأخوة أحيانا، ويتباكى على مجدٍ تالدٍ، ومن أمثلة قصائده التي أفردها، أو أكثر فيها الحديث عن هموم أمته (يا شرق/ صرخة الميلاد/ البعث/ الصفاء/ قومي)، وكثيرا ما جاء ذكر أمته مبثوثا في ثنايا أغلب القصائد، حيث لم تفارق أمته مخيلته، فقد كان كثيرا ما يربط بين (الذات، والوطن، والأمة)، فالشاعر يصرح في قصيدته (قومي) حبه للأمته فيقول:[٢]

قـومي وهـم زينـة الـدنيا وبهجتهـا ... وفي سـماء المعـالي نجمهـا العـالي
أعمامي الصِّيد في الإسـلام منبـتهم ... والعيسـويون في التـاريخ أخـوالي
أهـوى هـواهم.. وأفـدي منهمـو ... يُشَـيِّدون العـلا... بـالعلم والمـال

فالشاعر يؤمن أن أمته خير أمة، فهم لا يمثلون فقط نجوم السماء، بل أعالي هذه النجوم، ولمَ لا، ؟! وهو معم، مخول، فأعمامه هم أصحاب الحول والطول ذوو السلطان، وأخواله (العيسويون) الذين مجدهم التاريخ؛ لذا فهو يهواهم جميعا، ويفتديهم؛ لأنهم هم من رفعوا شأن العالم كله بمالِهم، وعلمِهم، وليس أدلَّ على حبِّ الشاعر لقومه من اختيار عنوان القصيدة باسمهم (قومي) واستخدامه لياء المتكلم دليل على اعتزازه، وافتخاره بالانتساب إليهم، وها هو الشاعر في مطلع القصيدة يفتدي أمته بالروح، ويشاركهم أفراحهم، ويفعل كل ما

(١) راجع تجليات الهوية في شعر حسن عبد الله القرشي، رسالة ماجستير، حسن فاروق محمد خليل، كلية الآداب جامعة المنصورة/ ٢٠٢١/. ص ٧٦.
(٢) الديوان ص ٥٤٠. الصيّد: جمع أصيد، وهو كل ذي حول، وطول من ذوي السلطان.

بوسعه دفع الحزن عنهم، فيقول في مطلع القصيدة:

وقفت عمري على قومي وآمالي ... وبعتهم همي... والمطمع الغالي
أَحْيَى لهم وأَفدِّي مجدهم كلفا ... بالعالمين... جوادا غير بخالِ
إن ضاحكوا دهرهم..باريتهم فرحا ... ورحتُ أشدو هنيًّى القلب والبال
وإن تنادوا إلى همٍّ يؤرِّقهم ... أقيتُ في النار أنفاسي و أوصالي

وفي قصيدته نشيد (الصفاء) التي أهداها إلى المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بعد أن تناول الشاعر الشاعر فضل الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكيف ساد العدل العالم، يذكر العالم بما قدمه العرب للبشرية من عدل وعلمٍ وحريةٍ، وكيف أحيا العربُ الغربَ بعد موات طويل، وكيف رد الغربُ بنكران جميل العربِ، بالظلم والطغيان فيقول:(١)

هذه الأرض شرقها خلق الغرب فلم يجزه جزاء الوفي
هذه الأرض غربها قتل الشرق ووارى الشرقي بالشرقيِّ
عربٌ تأخذ الأعاجم عنهم كلَّ فنٍ من البلاهة حيِّ

فالشاعر استخدم ظاهرة التكرار(هذه الأرض) مرتين تكرارا رأسيا؛ ليعقد موازنة بين شرق الأرض الممثلة لقومه وأمته وغربها الممثل في المحتل لمعظم بلاد الشرق، والجائر على حقوق الشرقيين، ومن خلال مفارقة بين ما قدم كل فريقٍ للآخر، فالأول العربُ (خلق) الغربَ (شرقها خلق غربها)، والآخر (غربها قتل شرقها)، وشتان ما بين الخلق والقتل، ولك أيها القاريء الكريم أن تعي الفرق بين الدلالاتين (خلق& قتل) فقد قام الثاني (الغربُ) بقتل من أوجده (الشرق)، وجاء الشاعر بقوله في الشطر الثاني من البيت الأول (فلم يجزه جراء الوفي)؛ لبيان انحطاط القيم الخلقية عند الغرب، وما طُبعوا عليه من غدر، وفي قوله (ووارى الشرقَّ بالشرقيِّ) ما يدل على شدة خداع الغرب، وكيف أوقعوا الأخ بأخيه، وهو بذلك يُعرِض بالمنافقين من الأمة، وكذلك بمن اتخذهم أولياء، فعاونَهم، أو نَصرهم على أخيه في الدين، واللغة، والهوية، و هو ومن عاونهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.، ومن أمثلة ذلك ما ورد في ذات القصيدة (نشيد الصفاء) حين خاطب

(١) الدوان، ص ١٤٤.

الشاعر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يعرفه بحال أمته، وما أصابها من خلل، حيث محتل فاجر، وأمتة مستكينة فيقول:[1]

هـا هـي الأرض يـاحبيبي ذئابٌ...وذئـابٌ.... مـن فـاجر أو تقـيِّ
مُلِئـتْ جـازرين شـبُّوا عـلى الشـهوة واسـتمرأوا طعـام الغـويِّ
ومجـانين قيَّـدوا العقـل بالشـرِّ..... وفكُّـوا غرائـز البـشريِّ
رقَّشـوا الكـون بالـدماء و غنـوا كـلَّ لحـنٍ مـن المنايـا بـكيِّ
عبـدوا المـال وهـو لمـع سراب واسـتظلُّوا بظلِّـه القَفِـريِّ

فالشاعر اختار لفظ (ذئاب) دون غيره من الحيوانات المفترسة؛ لما يختص به من غدر، وشغف بالدماء، والعجيب أن الشاعر ذكر (الذئاب) مرتين، وليس على سبيل التكرار، ولكنه أتى بهما معطوفتين، وهذا يستلزم إمعان الفكر فيها خاصة أن العطف معها جمع بين فريقين متناقضين(فاجر، وتقي) وكلاهما من منظور الشاعر (ذئبٌ)، وهذا أمر غريب، فالفاجر ذئب بفجره، وإغتصابه دماء، وحقوق الآخرين، فما بالُ الآخر (التقي) ؟ ولعل الشاعر من وجهة نظري - وقد أكون مخطئه - أن ذِكره التقي جاء موصوفا بهذا لوصف (ذئب)، لأنه ارتضى الصمت، واستسلم له، ولعله عندما ارتضى الذل، وانعزل عن الناس كان ذلك منه بمثابة الموافقة، وتشجيع الظالم على ظلمه، لأن الساكت على الظلم شيطان أخرس، وقد يكون هذا الوصف من الشاعر جاء في حالة سخط منه على استكانة قومه، ولما كان هذا حال الفريقين كان طبيعيا أن يكون البيت الثاني تعليلا للأول، فقد ملئت الأرض جازرين، وجاء الجمع هنا ليدل على الكثرة والتي دلت عليها كلمة (ملئت) ولكن الجازرين ليسوا في تخصص واحدٍ، وان اتفق الهدف والغاية، فمنهم من يحب سفك الدماء، ومنهم من يأكل حقوق الناس، ومنهم من يغتصب حرماتهم (جازرين شبوا على الشهوة، واستمرأُوا طعام الغويِّ)، ومنهم كذلك جازرون تخصَّصوا في كبت الحريات(قيدوا العقل بالشرِّ)، وقد وفق الشاعر حين جاء بلفظين (جازرين، وشبوا على الشهوة)، فالشاعر وصفهم (بالجازرين) وليس (الجزارين) فمجيئها على صيغة اسم الفاعل جعل منها عملا مقصود القيام به، كما

(١) الديوان، ص ١٤٦.

أن لفظ (شهوة) فتح الباب للخيال فهناك جزار شهوته سفك الدماء، وأخر يشتهي هتك الأعراض، وثالث يشهى سلب الحقوق، وغيرهم تملكته شهوة سلب القول أو الحريات، وهكذا تنوع الشهوات كان رسالة أراد الشاعر أن يوصلها في خطابه للحبيب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكأنه يبلغه بانتشار الفسق والفجور وتنوع ألوانه؛ لذا جاء قوله (رقَّشوا) وكأن هذه الموبيقات صارت بالنسبة لهم زينة وزخارف، ويجسد الشاعر ما وصلت إليه الأمة في قوله:

رقَّشوا الكون بالدماء وغنّوا كلّ لحنٍ من المنايا بكيٍّ
عبدوا المال وهو لمع سراب واستظلّوا بظلّه القفريِّ

ويستعرض الشرنوبي حال الأقطار العربية الواحدة تلو الأخرى فيقول:[1]

وهناك الشام أثقله القيد طليح يفنى بكفٍّ قويٍّ
ففلسطين جمرة الشرق باتت مسرحا للممثل الموسويِّ
و للبنان في الداعر الفذِّ انتفاضات فارسٌ علويِّ
ولسوريا في الخافقين صراخ مُضريّ الأصداء شاجي الدويِّ
والعراق الهضيمُ والأردنُ الضائع كلٌّ لصحبه كالسميِّ

وبعد أن عدد الشاعر حال الأقطار العربية، وجد أن الجميع قد تحطمت أمجاده فيقول:

أمم حُطِمتْ بمعول شيطان ولفَّت بمجدها الوهمي
وحياة مريضة شاقها الموت وضجَّتْ من سجنها الأبديِّ

هكذا وصف الشرنوبي حال الأمة إجمالا بعد أن فصل حالة كل قطر، وقال (حُطِمتْ بمعول شيطان) فقد خص المعول؛لأنه أداة الهدم، أما الشيطان فهو المحتل، الذي أينما تواجد في مكان وُجِدَ الفساد، فإنه لا يأتي بخير، وجاء وصف الشاعر للأمة بأنها (مريضة)، وأنها قد كرهت حياة القيد؛ للإبقاء على بريق الأمل في قيام ثورات تغير الحال، وتشفي هذه الأمة العليلة، وبعد هذه الأبيات مباشرة يوظف الشاعر التراث العربي والإسلامي المجيد من خلال توظيف الشخصيات، والحدث

(١) الديوان، ص ١٤٦.

من باب استنهاض الهمم، حيث يعد ذلك أحد المعطيات التراثية التي اجتهد الشاعر المعاصر في توظيفها، حيث إن توظيف الحدث، لا يقل أهمية عن توظيف الشخصية لرموز فنية من شأنها أن تمنح القصيدة سمة معاصرة بالإضافة إلى إحساس الشاعر بما يحققه التوظيف من ربط بين الماضي التليد، ورؤية الشاعر المعاصر.[١] وفي ذلك يقول الشرنوبي[٢]

أين مجد بناه نور الحياتين يتيم الصحراء راعي الجُدِيِ؟
أين فاروقها أمير المساكين وابن الصديق قلب النبي؟
لأَحِمي الشرق من بنيه ذليلا و هو الشرق أمة الهاشميِّ

فالشاعر يفتقد في أمته المعاصرة من يقوم بهذه الأدوار، والعجيب أنه يبحث في التاريخ عن شخصيات تحمي الشرق من أبائه؛ ولذا جاء أستخدام الإستفام للدلالة على فقدان النظير، أو البديل

وينادي الشرنوبي أمم الشرق في قصيدته (الشرق) رابطا بين سميائية العنوان، والمضمون الذي حوته القصيدة، وهذا يتوافق مع مفهوم النقد الحديث لدلالة عنوان القصيدة على محتواها، حيث يري د/ عبد الملك مرتاض" أنه لابد أن يرتبط العنوان بالنص ارتباطا عضويا، فيكمله، ولا يختلف معه، ويعكسه بأمانة ودقة"[٣]، وأرى أن العنوان في القصيدة غالبا ما يضعه الشاعر بعد أن يفرغ من القصيدة، فالقصيدة لا تولد من عنونها، وإنما يتولد العنوان من القصيدة، فالعنوان بالنسبة للشاعر يعد آخر الحركات المكتوبة للقصيدة.[٤] وفي هذه القصيدة يبدأ

(١) راجع توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر، د/ علي عشري زايد، مجلة فصول، عدد أكتوبر ١٩٨٠م، ص ٢٠٩.

(٢) الديوان ص ١٤٦. والجُدِي، استخدمها الشاعر هنا جمع جَدي على غير القياس؛ لأن جمعها جِديان، وأجِدْ، وجْداء، ولعله جعها على اللغة العامية للمصريين.

(٣) تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سميائية لرواية زقاق المدق، د/ عبد الملك مرتاض، المطبوعات الجامعية الجزائر ١٩٩٥م.، ص ٢٧٧.

(٤) راجع الخطيئة والتفكير من البنيوية إلى التشريحية/ عبد الله محمد خزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨/، الطبعة الرابعة، ص٢٣، وما بعدها، وجماليات القصيدةد/ طه وادي، طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٨٩.ص ٢٧٢.

الشاعر بالتصريح، ويبدأها من زاوية بيان ماضي الأمة، وكيف هُدِمَ عزها، ويتعجب من العربي المعاصر إلى متى سيظل مُضَيعا لمجده فيقول:(١)

مجـــدٌ يُهـــان... وعِـــزَّة تتضعضـــعُ ... حتـــامُ أنـــتْ عـــلى الزمـــان مُضَـــيِّعُ
في كـــل يـــوم حـــادثٌ وضـــحيةٌ ... وبكـــل وادٍ مـــأتمٌ.... وتوجُّـــع ؟
ما أنـت في الـدنيا و مـاذا ترتجـي؟ ... ولكـلِ حـرٍّ فـوق أرضـك مصـرع
مـا زلـت مـن ماضـيك أقـرب ثاكـل ... عهـدا بمـا يُـدمي العيـون... ويُـدْمِعُ
أيئســـتَ أم آمنـــتَ أنـــك زائـــلٌ؟ ... ومـــن العقائـــدِ مـــا يضـــرُّ.... وينفـــعُ

فالشاعر يتساءل سوأل المتعجب المنكر لما آل إليه حال الأمة، كيف هان عليها ضياع مجدها؟! حت أضحت لا يمر يوم إلا بفيجيعة، (في كل يوم حادث وضحية، وبكل واد مأتم وتوجع)، ويسأل الشرقي ماذا يريد، ومن يكون؟ولمَ الشرق على وجه الخصوص تُصْرع فيه الأبطال، وتقيد فيه الحريات؟و أراد ب (قريب الثكل) أن ماضي العرب المضيء كان حاضرا إلى وقت قريب، مما يعني أن الأحفاد الحاضرون هم من ضيعوه، ويتعجب الشاعر من كون أمم الشرق أمما إسلامية، وهي التي استكانت للظلم، فهل مرد ذلك اليأس، أم الزهد في الدنيا الفانية؟ إذا كان اليأس فالإسلام لا يعرف اليأس، ولا يحب القانطين، وإذا كان الزهد، وأن المسلم يعلم أن الدنيا دار الغرور، وأن ملكها زائل فركنوا إلى الاستسلام، فهذا فساد في فهم الدين، وعلى أبناء الشرق ألا يتحججوا بالزهد، والورع، لأن الدين ينبذ السلبية فيقول:

أيئســـتَ؟ أم آمنـــتَ أنـــك زائـــلٌ؟ ... ومـــن العقائـــد مـــا يضرُّـــ.... وينفـــعُ
يـــا معبـــد الطـــاغوتِ.. دينـــك باطـــلٌ ... فلكـــلِ إثـــمٍ في رحابـــك موضـــع

فالشاعر يقصد بقوله(فلكل إثم في رحابك موضع) أنه من المسلمين من يبرر سكوته على الظلم والظالمين بأنه من الدين، ويستدل بما يلوى حقائق الدين، وهذا ما قصده بلفظ (موضع) أي دليل وُظِفَ في غير موضعه. ويصف الشاعر حال الأمة العربية، وقد تقطعت أوصالها، وأصبح أباؤها غرباء في بلادهم، لا حقوق لهم، ولا يملكون إلا التصفيق للأعداء، والسمع والطاعة، وقد صاروا مضللين، يرون أن

(١) الديوان، ص ٥٥٥.

الخروخ على الطغاة، والدعوة إلى الثورة، دعوة إلى التنابذ، والفرقة، ويصور الشرنوبي ذلك في قوله[1]:

أمـم كـأطراف الجـزيم.. فناؤهـا ... إرث عـلى نـوب الحيـاة...مـوزع
أباؤهـا الغربـاء في أوطـانهم ... كـفٌّ مُصَـفِقَةٌ..... وأُذْنٌ تسـمعُ
ومضـلِّلٌ وهـبَ الحيـاةَ لمـذهبٍ ... النـارُ بعـضُ دُعاتـهِ والمـدفعُ
ومؤمِّـل عنـد الكريهـة حظَّـه ... بعـد الكفـاحِ...منيّـة لا تُـدفعُ
أشـلاءُ معركـة الحياة...وعنـدهم ... أنَّ الجهـاد تنـابذٌ وتقـاطعُ

ويختتم الشاعر قصيدته بنداء الشرق طالبا منهم أن يسرعوا الخطى نحو الحرية، وأن يلحقوا بالركب قبل يغادر بالأحرار ولا رجعة له ثانية فيقول[2]:

يـا شرق... والتـاريخ وثبـة أمـة ... ترجـو الحيـاة... ورأسـها مُترفِّـعُ
أخشى ـ عليـك وأنـت تحلـم عابثـا ... ألا يكـون لمـا يفـوتك مرجـع

وينشأ الشاعر قصيدة (صرخة الميلاد) في عام النكبة (١٩٤٨)، ولعله قصد بصرخة الميلاد التي تواكب المولود للدلالة على أنه حيَّي، وأن ضياع فلسطين، واغتصابها قد يكون الصرخة التي تحيي العرب الموتى، فتكون إذانا بتحرير كل البلدان وليس فلسطين فقط، فهي صرخة أمل في خلاص منشود، أو لعلها صرخة في نفوس جيل جديد ولد حرًّا، فالأمل مرهون عليه، ويصور ذلك قوله[3]:

دعْ النائمَ اليقظان...لا تسـقيه خمْـرا ... وأهْرِقْ عليه النار إن شـئتَ والجمـرا
ومـزِّق غيابـات الكـرى عـن جُفونـه ... فقد أقسمَ السفاحُ أن يخنُـقَ الفجـرا
وهـذا النَّئـوم اليَعْـرُبيِّ كـما تـرى ... يصارعُ بالأوهـامِ أحـداثه الحُـمرا
يعـيشُ عـلى المـاضي السـحيق فليتـه ... يمـدُّ لـه مـن نسـج عزمتـه عمـرا

فالشاعر يطلب من الأحرار أن يتركوا القابعين في مراتع الذل، بل يطلب منهم أن يقوموا بحرقهم (وأرقْ عليه النار إن شئت والجمرا)، و سماهم ب (النائم اليقظان)، لأنه نائم عن الدفاع عن حريته، يقظ في تنفيذ أوامر سيده، ثم هم

(١) الديوان، ص ٥٥٥. الجزيم: من قطعت طرفه بسرعة.
(٢) الديوان، ص ٥٥٦؟
(٣) الديوان، ص ٤١٨.

نائمون من زمن؛ لذا سمى نومهم (غيابات الكرى) أي النوم الطويل الذي يغيب صاحبه عن الإحساس بالحياة، وفي قوله (فقد أقسم السفاح أن يخنق الفخر) فيه استعارة، وكناية، أما الاستعارة فكامنة في تشبيه الفجر بإنسان يخنق فيموت، والكناية في رمزية خنق الفجر بما يعني أن المستعمر أقسم ألا يذوق العربي نور الحرية، وأن يظل في ظلام العبودية، أما عن اختياره وصف العربي ب(النئوم اليعربي) وصفه بالنئوم مبالغة في تكاسله عن الذود عن حريته، وتصغيره للعربي (اليعْرُبي) فيه احتقار من شأن هذا المتخاذل، وكأنه قزم في الانتماء، وقد وظَّفَ الشاعر في رسم لوحته خاصية الفعل، ودلالته على الحدث والزمن، فجاءت أفعال الأمر (دعْ، أهرقْ، مزقْ) وكأنه يقول لو أردت الحرية والنور فعليك بتنفيذ هذه الأوامر، أما الفعل المضارع (يصارع، يعيش، يمد، يخنق)كلها أفعال توحي من خلال دلالة الحاضر على حالة الهوان، والذل التي يحياها العرب.

ويُذكر الشاعر العرب بماضيهم المشرق، وكيف أن الحرية لا تُطّلب، ولكنها تُنتزع عنوة فيقول[١]:

وما أنا في الأحياء إن زال حاضري	ولم أدخر مجدا ولم أحتقب فخرا
فقل لفتى الأعراب والسيف مصلتٌ	على رأسه...وثبا إلى الحرب...لا سُكرا
عهدتك سباق الأمان فلا تكن	لدى المحنة الحمقاء أسوان مزورا

فإذا كان الشاعر في مطلع القصيدة، قد أطلق على العربي (النئوم) منكرا خموله وتفريطه في الدفاع عن حقوقه، فإنه في هذه الأبيات مازال يأمل فيه، ويتمنى جيلا جديدا؛ ولذا ناداه هذه المرة (بالفتى)، وشتان ما بين النئوم، والفتى، تماما كالفارق ما بين الإحباط والأمل، وطالما وُجِدَ الأمل، وجدنا الشاعر يتحث، ويستنفر الأمل فيهم فيقول[٢]:

فماذا دهى عينيك فاظلِّمَّ نورها	وأطبقتها خوفا وأنكرتها ذعرا
أفقْ فالحياةُ المجدُ..... والمجدُ وثبةٌ	تُعَفِّرُ وجْهَ الدَّهر مسْعورةً حرّى

(١) السابق ص٤١٨/٤١٩.أحتقب فخرا: أدخر فخرا.أسوان مزورا: حزينا متحرقا.مسعورة: متقدة، الحرى: مؤنث الحران: أي شديد العطش، لا تأْلُه: أي لا تقصر، ولا ولا تبطيء.

(٢) الديوان ص ٤١٩/٤٢٠.

أفـقْ فاليـد الشـلَّاء مـوت وجــودُها ولن يعرف العلياء من يعـرف القهـرا
....
فكن أنت يا ابن الشرق للداء حاسما وأَطْعِمْـه نـار السـيف...لا تألُـه بـتْرا
فمـــا آمـــن التـــاريخ إلا بماجـــدٍ يحْقِّـــرُ في آمـــله المـــوت والـــدَّهرا

فالشاعر يقصر الحياة على المجد، والمجد على الوثوب (فالحياة المجد، والمجد وثبة)، كما أفادت الأساليب الخبرية بيان حقائق ثابتة، تقوي من منطق الشاعر في دعوته إلى الجهاد مثل (الحياة المجد/ المجد وثبة/اليد الشلاء موت وجودها)، أما فعل الأمر الذي كرره الشاعر(أفقْ، أفقْ) فهو بمثابة الهزات النفسية الشديدة التي يأمل الشاعر من خلالها إفاقة هذا النائم الذي تحدث عنه في بدء القصيدة في مطلعها (دع النائم اليقظان)، وعندما يختم الأبيات بطلب الإفاقة دل هذا على ترابط الأبيات، وتمَثُّلِ الشاعر للوحدة العضوية في قصائده، حيث تدافر في القصيدة وحدة الموضوع، ووحدة ترتيب الأفكار، ووحدة التصوير الفني، وبهذا تكاملت وحدة (عضوية) القصيدة كما ارتأها دكتور محمد غنيمي هلال في قوله"ويقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصورة، والأفكار، على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحيَّة لكل جزء وظيفته فيها، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير، والمشاعر[1]".فالقصيدة كما ترى عبارة عن لوحة تصويرية متماسكة الأركان والأطراف، وهذا يعني تماسك بنائها العضوي، أو ما يعرف بالوحدة العضوية، فهي في حقيقتها" وحدة الصورة، ووحدة الصورة هي بالضرورة وحدة الإحساس، أو هيمنة إحساس واحد على القصيدة كلها، وعلى هذا فالوحدة العاطفية هي دليلنا على تحقيق الوحدة العضوية في العمل الفني[2]".

وهكذا شارك الشرنوبي أمته ما تعرضت له من حملات استعمارية استهدفت قوتها، وثروات، مجدها، ولذا حث الشاعر على الثورة، واستنفر الهمم، وذكَّر

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص ٣٩٥.
(٢) قضايا النقد الأدبي والبلاغة، د/ محمد زكي العشماوي، مطبعة الدار القومية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ص ١١٠.

بالماضي التليد، وتنبأ بالثورات العربية قبل حدوثها، لكن الحياة لم تمكنه من جني ثمرة كفاحه بالكلمة، فمات قبل أن يحصل أيٍّ من الأقطار العربية على حريته، حيث توفي عام (١٩٥١م)، أي قبيل ثورة ١٩٥٢م في مصر. وكأن الحياة كتبت على الشرنوبي أن يحلم بالأماني دون أن تتحقق له أمنية، لا ذاتية، ولا إنسانية عادلة ينعم فيها الإنسان بإنسانيته وحريته.ولعل هذا البحث يكون بمثابة تكريم لروحٍ عُذِبتْ من أجل أن تنعم الإنسانية بحقوقها.

الخاتمة

تغيَّا البحث من خلال هذه الدراسة الموسومة بالنزعة الإنسانية في شعر صالح الشرنوبي إلى التعرف على ملامح إنسانية الذات والآخر في شعره، وقد أسفر البحث عن عدَّة نتائج تمثلت في: -

- أن للنزعة الإنسانية حضوراً مكثفاً بحيث شكلتْ ظاهرة لافتة، كانت حريَّة بالعناية والدراسة.
- تجلَّتْ إنسانية الذات في شعر الشرنوبي في صورٍ وأنماطٍ متعددة، وكلها نتجتْ عن صراع نفسي متأجج مع الحياة، مما كان له الأثر الفعَّال في تشكيل شخصيته.
- مال الشرنوبي في كثير من أنماط شعره إلى لون من الاغتراب الروحي، والزماني.
- انعكست صورة الشرنوبي الحياتية على نظرته للمرأة، فتعددت صورها وفقا لحالته النفسية سخطا، ورضا.
- كان للشرنوبي رؤية خاصة لمفهوم الحياة والموت، ربطها في كثير من شعره بمدى تحقق الآمال فبدت كارهة للحياة، شغوفة بالموت.
- يشي شعر النزعة الإنسانية لديه بتمتعه بدقة التصوير، وعمق الإحساس، والقدرة على التحليل النفسي، والذي جاء في أغلبه تفصيليا.
- اتسم شعر الشرنوبي الإنساني بالمنطقية في التحليل والعرض، خاصة فيما يتصل بقضايا المجتمع، أو القضايا الوطنية، والقومية.
- تميز شعر الشرنوبي بوصف كثير من السلوكيات الاجتماعية السلبية التي شهدها المجتمع.
- تجلت في شعر الشرنوبي ظواهر أسلوبية لافتة عبر التشكيل اللغوي والأسلوبي مثل التكرار، والاستفهام، وتنوع الأساليب ما بين الخبري والإنشائي، مع اتصافها جميعا بالسلاسة والوضوح.

- امتاز الشرنوبي بقدرته التصويرية المدهشة، حيث تنوعت آليات تشكيل الصورة لديه فقد كان يعوِّلُ كثيرا على التشبيه، والاستعارة، مع استخدام عناصر التصوير من حركة وصوت ولون...الخ، وقد حملت صوره الفنية صفتا التشخيص، والتجسيم، مما منح صوره لونا من الحيوية، والإمتاع.
- بدا واضحا في شعر الشرنوبي الاهتمام بالبنية الإيقاعية، حيث عُنِيَ عناية واضحة بالقوافي، والتصريع، وقد أكثر الشرنوبي من توظيف التدوير، والذي دلَّ على تمكنه من فنه، كما تعددت أشكال القافية في شعره، فاتخذ العديد من الصور، و تنوع شكل القصيدة ما بين عمودية، ومقطوعات جاءت مابين خماسية ورباعية وثنائية، وغير ذلك من أشكال الشعر.
- وُفِقَ الشرنوبي كثيرا في التعبير عن الذات والآخر ضمن اللوحة الواحدة ببراعة فائقة، حيث يكلمك عن ذاته من خلال حديثه عن مجتمعه، ويحدثك عن مجتمعه من خلال حديثه عن ذاته.

والله ولي التوفيق، ومنه العون والسداد

الباحثة

فهرست المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- ديوان صالح الشرنوبي، طبعة دار الكتاب العربي القاهرة، تحقيق دكتور/ عبد الحي دياب، ومراجعة دكتور أحمد كمال زكي، طبعة ١٩٦٦م، سلسلة تراثنا.

ثانيا: المراجع.

- الإبداع الشعري عند صالح الشرنوبي بين تنوع التقليد وعبقرية التجديد، دكتور/شعبان زكي عبد الحفيظ، مجلة كلية اللغة العربيةبأسيوط، العدد٣١، جزء ٣، ٢٠١٢م.
- الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، مفيد محمد قميحة، دار الرياض للنشر والتوزيع١٩٨٠م.
- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دكتور/ عبد القادر القط، مكتبة الشباب القاهرة، ١٩٨٨م.
- أدباء الرومانتيكية الفرنسية، سلسلة في الأدب والنقد، دكتور/محمد غلاب، مكتبة نهضة مصر القاهرة١٩٥٧م.
- الاغتراب في الشعر العراقي، محمد راضي جعفر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩م.
- تحليل الخطاب السردي (معالجة تفكيكية سميائية مركبة) لرواية زقاق المدق، عبد المالك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥م.
- التفسير النفسي للأدب، د/ عز الدين اسماعيل، مكتبة غريب القاهرة، الطبعة الرابعة.
- توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر، د/ علي عشري زايد، مجلة فصول، عدد أكتوبر ١٩٨٠م.
- ثورة على الفكر العربي المعاصر ودراسات أخري، محي الدين أحمد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤م.
- جماليات القصيدة، د/ طه وادي، طبعة دار المعارف القاهرة، ١٩٨٩م.
- خصام ونقد، د/ طه حسين، دار العلم للملايين بيروت، الطبعة التاسعة، ١٩٧٩م.
- دراسات في النقد الأدبي المعاصر، د/ محمد زكي العشماوي، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- الديوان في الأدب والنقد، الاستاذ/ محمود عباس الغقاد، الطبعة الثانية القاهرة١٩٥٤م.
- ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتب العلمية، مجلد ١، ٢٠٠١م.
- أسرار الشخصية وبناء الذات، أنس شكشك، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٩م.
- سرُّ الفصاحة، لابن سنان الخفاجي، عبد المتعال الصعيدي، طبعة القاهرة ١٩٥٢م.
- الشعر العربي قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د/ عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية،

الطبعة الخامسة، ١٩٩٤م.
- الشعر المصري بعد شوقي، الحلقة الثالثة، روافد أبوللو، د/ محمد مندور، دار نهضة مصرللطباعة والنشر والتوزيع.
- العمدة، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محي الدين عبد الحميد، طبعة الثالثة.
- الغربة والاغتراب، د/ عبده ١٩٨٦بدوي، دار قباء للطباعة والنشر.
- الفنان والإنسان، زكريا عرفة، مكتبة غريب القاهرة١٩٧٣م.
- قراءات في الشعر العربي الحديث، بشرى البستاني، دار الكتاب العربي بيروت، طبعة ٢٠٠٢م.
- قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين القاهرة ١٩٧٠.
- لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف القاهرة.
- معازف الشرنوبي الشاكية في شعره رؤية فنية، د/ فتحي أبو عيسى، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الأول، مطبعة الأمانة،
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيةبالقاهرة مجموعة مؤلفين، الطبعة الثانية ١٩٧٢م.
. - مع الشعراء المعاصرين د/ متولي محمد البساطي، الطبعة الأولى ١٩٩١م
- المفارقة في شعر صالح الشرنوبي، د/ يوسف محمد عزاز، حولية كلية اللغة العربية بإتاي البرود، العدد٣٢، المجلد الخامس.
- موسيقى الشعر، د/ ابراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، طبعة٢، ١٩٥٣م.
- موسيقى الشعر العربي، د/ حسني عبد الجليل يوسف، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م.
- النزعة الإنسانية في شعر العقاد، د/ عبد الحي دياب، دار النهضة العربية، ط الأولى١٩٦٩.
- النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر.
- أوراق النقد الأدبي، ابراهيم رماني، دار الشهاب، طبعة١٩٨٥م.

Index of sources and references

First: Sources

- Diwan of Saleh Al-Sharnoubi, published by Dar Al-Kitab Al-Arabi, Cairo, edited by Dr. Abdul-Hayy Diab, and reviewed by
- Dr. Ahmed Kamal Zaki, 1966 edition, Tralna series.

Second: References

- Poetic Creativity of Saleh Al-Sharnoubi between the Diversity of Tradition and the Genius of Innovation, Dr. Shaaban Zaki Abdel
- Al-Hafiz, Journal of the Faculty of Arabic Language in Assiut, Issue 31, Part 3, 2012 AD.
- The Humanistic Trend in Contemporary Arabic Poetry, Mufid Muhammad Qamiha, Dar Al-Riyadh for Publishing and Distribution, 1980. The Emotional Trend in Contemporary Arabic Poetry, Dr. Abdul Qader Al-Qat, Youth Library, Cairo.
- 1988 AD
- French Romantic Writers, a series on literature and criticism, Dr. Al-Muhammad Ghallab, Nahdet Misr Library
- Cairo 1957 AD
- Alienation in Iraqi Poetry, Muhammad Radi Jaafar, Publications of the Arab Writers Union, 1999.
- Narrative Discourse Analysis (A Complex Semiotic Deconstructive Treatment of the Novel Midaq Alley, by Abdelmalek Mortad)
- University Publications Office, Algeria, 1995.
- Psychological Interpretation of Literature, Dr. Ezz El-Din Ismail, Gharib Library, Cairo, Fourth Edition.
- Employing the Arab heritage in our contemporary poetry, Dr. Ali Ashry Zayed, Fousoul Magazine, October issue
- 1980 AD
- A Revolution in Contemporary Arab Thought and Other Studies Muhyiddin Ahmad Al-Asriya Library, Beirut
- The Aesthetics of Poetry, Dr. Taha Wadi, Dar Al Maaref Edition, Cairo, 1989 AD.
- Quarrel and Criticism, Dr. Taha Hussein, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, Ninth Edition, 1979 AD.
- Studies in Contemporary Literary Criticism, Dr. Muhammad Zaki Al-Ashmawi, Dar Al-Shorouk, first edition 1994 AD.
- The Diwan in Literature and Criticism, Professor Mahmoud Abbas Al-Akkad, Second